العواصف

بقلم

جبران خليل جبران

نشرتها

ادارة « الهلال »

obeikandl.com

مقدمة

هذه مجموعة رسائل من قلم الكاتب السوري النابغة جبران خليل جبران نزيل اميركا . وهي كسائر كتاباته تنم عن نفس كبيرة وروح سامية ـ نفس تدرك ما في النفوس من ضعف وقوة . وروح تعرف ما ينتاب الارواح من ألم وسرور

ومع ان هذه الرسائل كُتبت في اوقات واحوال مختلفة فان مراميها متقاربة متشابهة ـ هي عواصف اثارها كاتبها على المجتمع العمراني ليدك منه مواطن الضعف والوهن ولكنه لم يرم الى التدمير حباً بالتدمير بل تمهيداً للبناء المتين السليم

فنقدم الى قراء العربية هذا الاثر الادبي النفيس ونحن على يقين من انه سيقع لديهم موقع الاستحسان ـ شأن كل ما يبتدعه قلم ذلك الفني الفريد

ادارة الهلال

حفار القبور

في وادي ظل الحيـاة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرتُ وحيداً في ليلة حجب الضبابُ نجومها، وخامرَ الهولُ سكينتها

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع ، المنساب كالحية الرقطاء ، المتراكض كاحلام المجرمين ، وقفتُ مصغياً لهمس الاشباح ، محدّقاً بالاشيء

ولما انتصف الليل وقد خرجتْ مواكب الأرواح من أوكارها ، سمعتُ وقع أقدام ثقيلة تقترب مني، فالتفتُّ واذا بشبح جبار مهيب منتصب أمامي ، فصرخت مذعوراً

« ماذا تريد مني ؟ »

فنظر اليَّ بعينين مشعشعتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء

« لا أريد شيئاً وأريد كل شيء »

قلتُ « دعني وشأني وسر في سبيلك »

فقال مبتسماً « ما سبيلي سوى سبيلك » فانا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض »

قلت « جئتُ أطلب الوحدة تخلّني ووحدتي »

فقال « أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافني ؟

قلت « لستُ بخائف منك »

فقال « ان لم تكن خائفاً فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح ؟ »

قلتُ « ان الهواء يتلاعب بأثوابي فترتجف اما أنا فلا ارتجف »

فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال « أنت جبان تخافني وتخاف أن تخافني نخوفك مزدوج ولكنك تحاول اخفاءه عني وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني »

ثم جلس على الصخر فجلستُ قسرا رادتي محدقاً بملامحه المهيبة وبعد هنيهة خلتها الف عام نظر اليّ مستهزئاً وسألني قائلاً « ما اسمك »

قلت « اسمي عبد الله »

فقال « ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده ، فهلاّ دعوت نفسك سيد الشياطين وأضفت بذلك الى مصائب الشياطين مصيبة جديدة »

قلت « اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني اياه والدي يوم ولادتي فلن أبدله باسم آخر »

فقال « ان بلية الابناء في هبات الآباء ، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الاموات حتى يصير من الاموات »

فحنيت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً الى حافظتي رسوم أحلام شبيهة بحقيقته ثم عاد وسألني قائلاً « وما صناعتك ؟ »

قلت « انظم الشعر وانثره ولي في الحياة آراء أطرحها على الناس »

فقال « هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرّهم »

قلت « وماذا عسى أن أفعل بأيامي ولياليّ لا نفع الناس »

فقال « اتخذ حفر القبور صناعةً تريح الاحياء من جثث الاموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم »

قلت « لم أرَ قط جثث الاموات مكردسة حول المنازل »

فقال « أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون امام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا مَن يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم »

قلت وقد ذهبَ عني بعض الوجل « وكيف أميز بين الحي والميت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة ؟ »

فقال « ان الميت يرتعش أمام العاصفة أما الحيّ فيسير معها راكضاً ولا يقف الا بوقوفها »

واتكأ اذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوكة كأصول سنديانة مملوءة بالعزم والحياة ثم سألني قائلاً « أمتزوّج أنت ؟ »

قلت « نعم وزوجتي امرأة حسناء وأنا كلف بها »

فقال « ما أكثر ذنوبك ومساوئك — انما الزواج

عبودية الانسان لقوة الاستمرار فان شئت ان تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً »

قلت « لي ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالاكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه فماذا أفعل بهم ؟ »

فقال « علمهم حفر القبور ، واعطِ كل واحدٍ رفشاً ثم دعهم وشأنهم »

قلت « ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد فقد تعوّدت لذة العيش بين زوجتي وصغاري فان تركتهم تركتني السعادة »

فقال « ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاءٍ أبيض . ولكن ان كان لا بدّ من الزواج فاقترن بصبية من بنات الجن »

قلت مستغرباً « ليس للجنّ حقيقة فلماذا تخدعني »

فقال « ما أغباك فتى — ليس لغير الجن حقيقة ومَن لم يكن من الجن كان في عالم الريب والالتباس »

قلت « وهل لصبايا الجن ظرف وجمال »

فقال « لهنّ ظرف لا يزول وجمال لا يذبل »

قلت « أرني جنية فاقنع »

فقال « لو كان بامكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرتُ عليك بزواجها »

قلت « وما النفع من زوجة لا ترى ولا تمس ؟ »

فقال « هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والاموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها »

وحوّل وجهه عني دقيقة ثم عاد وسألني قائلاً « وما دينك »

قلت « أؤمن بالله واكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة »

فقال « هذه ألفاظ رتبتها الاجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . أما الحقيقة المجردة فهي انك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير أميالها ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماءٍ مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه — فتارةً يدعوها البعل وطوراً المشتري وأخرى الله »

ثم ضحك فانفرجت ملامحه تحت نقاب من الهزء

والسخرية وزاد قائلا « ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيف منتنة »

* * *

ومرّت دقيقة وأنا افكر بأقواله فأجد فيها معاني أغرب من الحياة وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى اذا ما تاهت فكرتي بين مظاهره ومزاياه ، وهاجت أميالي لاستعلان اسراره وخفاياه ، صرختُ قائلاً « ان كان لك ربٌّ فبربك قل لي من أنت »

قال « أنا رب نفسي »

فقلت « وما اسمك ؟ »

قال « الاله المجنون »

فقلتُ « وأين ولدت ؟ »

قال « في كل مكان »

فقلت « وأي متى ولدتَ ؟ »

قال « في كل زمان »

فقلت « ممن تعلمت الحكمة ، ومَن ذا الذي باح لك

باسرار الحياة وبواطن الوجود »

قال « لست بحكيم فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء بل أنا مجنون قوي أسيرُ فتميد الارض تحت قدميّ واقف فتقف معي مواكب النجوم وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الابالسة ، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل »

فقلت « وماذا تفعل في هذه الاودية الوعرة وكيف تصرف أيامك ولياليك ؟ »

قال « في الصباح أجدف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ، وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل اركع أمام نفسي وأعبدها »

فقلت « وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام؟ »

قال « أنا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل أجساد البشر ونشرب دماءهم ونتحلى بلهاتهم »

وانتصب اذ ذاك مبكلاً ذراعيه على صدره ثم أحدق بعينيّ وقال بصوت عميق هادىء « الى اللقاء » فأنا ذاهب

الى حيث تلتئم الفيلان والجبابرة »

فهتفت قائلاً « امهلني دقيقة فلي سؤال آخر »

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل « ان الآلهة المجانين لا يمهلون أحداً — فالى اللقاء »

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً به وبنفسي

ولما حوّلت قدميّ عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك الصخور الباسقة قائلاً « الى اللقاء - الى اللقاء »

* * *

وفي اليوم التالي طلّقتُ امرأتي وتزوّجتُ صبيةً من بنات الجن ، ثم أعطيت كل واحد من أطفالي رفشاً ومجرفاً وقلتُ لهم « اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب »

ومن تلك الساعة الى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الاموات . غير أن الاموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني !

العبودية

انما الناس عبيد الحياة وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفةً بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع

ها قد مرَّ سبعة آلاف سنة على ولادتي الاولى والآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين

لقد جبتُ مشارق الارض ومغاربها، وطفتُ في ظل الحياة ونورها، وشاهدت مواكب الامم والشعوب سائرةً من الكهوف الى الصروح، ولكنني لم أرَ للآن غير رقاب منحنية تحت الاثقال، وسواعد موثوقة بالسلاسل، وركب جاثية أمام الاصنام

قد اتبعتُ الانسان من بابل الى باريس ومن نينوى الى نيويورك ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه، وسمعت الاودية والغابات تردد صدى نواح الاجيال والقرون

دخلتُ القصور والمعاهد والهياكل، ووقفت حذاء

العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم ترابٌ جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات

دخلتُ منازل الاغنياء الاقوياء واكواخ الفقراء الضعفاء ، ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوي المفعمة بأشباح اليأس وانفاس المنايا ، فرأيت الاطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء . والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعن على أسرة الطاعة والامتثال

اتبعتُ الاجيال من ضفاف الكنج الى شاطئ الفرات الى مصب النيل الى جبل سينا الى ساحات أثينا الى كنائس رومية الى أزقة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون

الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها الهاً ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرّون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنية . ثم يستسلمون الى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الارض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بارادتها ويدعونها اخاء ومساواة ، ثم يجدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالاً وتجارة . . . فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علة أزلية أبدية تجيء بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الابناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول

* * *

وأغرب ما لقيتُ من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العمياء — وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجساداً جديدة لارواح

عتيقة وقبوراً مكلسة لعظام بالية

والعبودية الخرساء — وهي التي تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها . وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم . .

والعبودية الصماء — وهي التي تكره الافراد على اتباع مشارب محيطهم والتلوّن بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الاصوات كرجع الصدى ومن الاجسام كالخيالات

والعبودية العرجاء — وهي التي تضع رقاب الاشداء تحت سيطرة المحتالين وتسلم عزم الاقوياء الى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الاصابع ثم توقفها ثم تكسرها

والعبودية الشمطاء — وهي التي تهبط بأرواح الاطفال من الفضاء المتسع الى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل في جوار القنوط فيشبون تعساء

ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين

والعبودية الرقطاء — وهي التي تبتاع الاشياء بغير أثمانها وتسمي الامور بغير أسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثرثرة معرفةً والضعف ليناً والجبانة إباء

والعبودية العوجاء — وهي التي تحرّك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بما لا يضمرون ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره

والعبودية الحدباء — وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم آخرين

والعبودية الجرباء — وهي التي تتوّج أبناء الملوك ملوكاً

والعبودية السوداء — وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الابرياء

والعبودية للعبودية نفسها وهي قوة الاستمرار

* * *

ولما تعبتُ من ملاحقة الاجيال ، ومللت النظر الى مواكب الشعوب والامم ، جلستُ وحيداً في وادي

الاشباح حيث تختبىء خيالات الازمنة الغابرة وتربض أرواح الازمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدقاً بوجه الشمس فسألته « من أنت وما اسمك »

قال « اسمي الحرية »

قلت « وأين أبناؤك »

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد » ثم توارى عن عينيّ وراء الضباب

obeikandl.com

المليك السجين

خفّف عنكَ أيها المليك الاسير فلست في سجنك أشد بلاءً مني في جسدي

اربض وكن متجلداً يا ابا الاهوال ، فالاضطراب أمام النوائب حريّ ببنات آوى ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان

سكّن روعك يا فتى العزم وانظر اليّ فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحي ولكنه يخشى الاقتراب اليك

كلانا منفي عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه ، نخفض عليك جأشك وكن مثلي صابراً على مضض الايام والليالي ، ساخراً بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرشٌ لا يسمعون ؟

لقد صرختُ قبلك في آذانهم فلم استوقف غير اشباح الدجى، وتفحصتُ مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبانٍ يستبسل متجبراً أمام المقيدين بالسلاسل، وضعيفٍ يتوقح متصلباً أمام المسجونين في الاقفاص

* * *

انظر أيها المليك الجبار، انظر الى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن، تفرّس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات ادنى رعاياك واعوانك في مجاهل الصحراء. فمنهم من يشابه الارنب بضعف قلبه، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله، ومنهم من يضارع الافعى بخبثه، ولكن ليس بينهم من له سلامة الارنب وذكاء الثعلب وحكمة الافعى

انظر فهذا كالخنزير قذارةً أما لحمه فلا يؤكل. وهذا كالجاموس خشونةً أما جلده فلا ينفع. وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين. وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيبه في الهياكل. وتلك كالطاووس تيهاً واعجاباً أما ريشها فمستعار

وانظر ايها السلطان المهيب انظر الى تلك القصور والمعاهد، فهي اوكار ضيقة يسكنها الانسان مفاخراً بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم مغتبطاً بصلابة جدرانها التي تفصله عن أشعة الشمس. هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب وتترمد في زواياها جمرة الحب. وتتحول في فضائها رسوم الاحلام الى أعمدة من دخان. هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت

وانظر أيها الاسير الجليل انظر الى تلك الشوارع المنفرجة والازقة الضيقة فهي أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبىء الخوارج في جنباتها. هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب، والرغائب تتنازل فيها الارواح متضاربةً ولكن بغير السيوف، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الانياب: بل هي غابة الاهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر، معطرة الاذناب، مصقولة القرون، لا تقضي شرائعها ببقاء الانسب بل بدوام الاروغ والاحيل ولا تؤول تقاليدها

الى الافضل والاقوى بل الى الاخبث والاكذب : أما ملوكها فليست اسداً نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضبُع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع

* * *

فدتك روحي أيها المليك السجين فقد اطلتُ الوقوف لديك وأسهبتُ بالكلام امامك ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين وهي النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين فسامح فتى يلوك الكلام متسلياً به عن الطعام ويرتشف الافكار مستعيضاً بها عن الشراب

الى اللقاء أيها الجبار المهيب فان لم يكن اللقاء في هذا العالم الغريب فسيكون في عالم الاشباح حيث تجتمع ارواح الملوك بارواح الشعراء

يسوع المصلوب

(كُتبت يوم الجمعة الحزينة)

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الانسانية من رقادها العميق وتقف امام اشباح الاجيال ناظرةً بعيون مغلّفةً بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب ... وعند ما تغيب الشمس عن مآتي النهار تعود الانسانية وتركع مصليةً امام الاصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل

اليوم تقود الذكرى ارواح المسيحيين من جميع اقطار العالم الى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين بشبح مكلل بالاشواك ، باسط ذراعيه امام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت الى اعماق الحياة ... ولكن لا تُسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون ويضطجعون جماعات جماعات

في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء اوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عالٍ صامتين متهيبين مصغين الى صوت فتى يقول لقاتليه: «يا أبتاه، اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون» ... ولكن لا تكتنف السكينة اصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء ويكفّنون ارواحهم بصفحات الكتب البالية

ان النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجنَ اليوم من منازلهنّ ليشاهدنَ المرأة الحزينة الواقفة امام الصليب وقوف الشجرة اللينة امام عواصف الشتاء ويقتربنَ منها ليسمعنَ أنينها العميق وغصّاتها الاليمة

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيّار الايام الى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهةً ويلتفتون الى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الارض والسماء. ولكن عندما

تمل عيونهم النظر الى هـذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين

في مثل هـذا اليوم من كل سنة تستيقظ الانسانية بيقظة الربيع وتقف باكيـةً لاوجاع الناصري ثم تطبق اجفانها وتنام نوماً عميقاً . اما الربيع فيظل مستيقظاً متبسماً ساثراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الاذيال

الانسانيـة امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على ابطـال الاجيال. ولوكانت الانسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظمتهم

الانسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطـائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التي تهصر بمسيرها الاغصان اليابسة وتجرف بعزمها الاقذار المنتنة

الانسانية ترى يسوع الناصري مولوداً كالفقراء عائشاً كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالمجرمين فتبكيه وترثيـه وتندبه وهذا كل ما تفعله لتكريمه

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص

يسوع ، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً وصُلب متمرداً ومات جبّاراً

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الاجنحة المعوجة

لم يجئ يسوع من وراء الشفق الازرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه بل كان حراً على رؤوس الاشهاد ، جريئاً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البثور الكريهة فيبضعها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقي بالرياء فيصرعه

لم يهبط يسوع من دائرة النور الاعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الاديرة والصوامع ، ويستهوي الرجال الاشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً بل جاء ليبث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوّض قوائم العروش المرفوعة على

الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الاصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين

لم يجيء يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الاكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة، بل جاء ليجعل قلب الانسان هيكلاً ونفسه مذبحاً وعقله كاهنا

هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادىء التي صُلب لاجلها مختاراً ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار

* * *

وأنت أيها الجبار المصلوب، الناظر من أعالي الجلجلة الى مواكب الاجيال، السامع ضجيج الامم، الناشر أحلام الابدية، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء اكثر جلالاً ومهابة من الف ملك على ألف عرش في ألف مملكة. بل انت بين النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من الف قائد في ألف جيش في الف معركة

أنت بكآبتك أشد فرحاً من الربيع بازهاره، أنت

بأوجاعك أهدأ بالاً من الملائكة بسمائها ، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور الشمس

ان اكليل الشوك على رأسك هو أجلّ وأجمل من تاج بهرام ، والمسمار في كفك اسمى وأفخم من صولجان المشتري ، وقطرات الدماء على قدميك اسنى لمعاناً من قلائد عشتاروت ، فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لانهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لانهم لا يعلمون بأنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور

على باب الهيكل

قد طهّرتُ شفتيّ بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتيّ للكلام وجدتني اخرساً

كنت اترنم باغاني الحب قبل أن اعرفه ولما عرفته تحولت الالفاظ في فمي الى لهاتٍ ضئيل ، والانغام في صدري الى سكينة عميقة

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم واقنعكم ، أما الآن ، وقد غمرني الحب بوشاحه ، جئتُ بدوري اسألكم عن مسالكه ومزاياه فهل بينكم من يجيبني ؟ جئتُ اسألكم عما بي واستخبركم عن نفسي فهل بينكم من يستطيع أن يبين قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي ؟

ألا فاخبروني ما هذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي وامالي ؟

وما هذه الايدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد وتسكب في كبدي خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الاوجاع ؟

وما هذه الاجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فاسهر مترقباً ما لا اعرفه مصغياً الى ما لا اسمعه ، محدقاً بما لا اراه مفكراً بما لا افهمه شاعراً بما لا ادركه ، متأوهاً لان في التأوّه غصّات أحبُّ لديَّ من رنّة الضحك والابتهاج ، مستسلماً الى قوة غير منظورة تميتني وتحييني ثم تميتني وتحييني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فانام اذ ذاك وبين اجفاني الذابلة ترتعش اشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات الاحلام

* * *

وما هذا الذي ندعوه حباً ؟

اخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبىء وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج

وتأتي نتيجةً لجميع الاسباب ؟

ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً اغرب من الحياة واعمق من الموت ؟

اخبروني أيها الناس — اخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة اذا ما لمس الحب روحه باطراف اصابعه ؟

هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومستقط رأسه عند ما تناديه الصبية التي أحبها قلبه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والاودية ليلتقي بالمرأة التي اختارتها روحه ؟

أيُّ فتىً لا يتبع قلبه الى اقاصي الارض اذا كان له في اقاصي الارض حبيبة يستطيب نكهة انفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة صوتها ؟

أيُّ بشريّ لا يحرق نفسه بخوراً امام إله يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟

* * *

وقفتُ بالامس على باب الهيكل اسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه

فمرّ امامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوّهاً « الحب ضعف فطري ورثناه عن الانسان الاول »

ومرّ فتىً قويّ الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً « الحب عزمٌ يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الاجيال ومستقبلها »

ومرّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهدة « الحب سمّ قتّال تتنفسه الافاعي السوداء المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ثم يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفه الارواح الظامئة فتسكر دقيقة ثم تصحو عاماً ثم تموت دهراً »

ومرّت صبيةٌ موردة الوجنتين وقالت مبتسمة « الحب كوثر تسكبه عرائسُ الفجر في الارواح القوية فيجعلها أن تتعالى متمجدةً أمام كواكب الليل وتسبح مترنمةً أمام شمس النهار »

ومرّ رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً « الحب جهالة عمياء تبتدىء ببدء الشباب وتنتهي بنهايته »

ومرّ رجل ذو وجه صبوح وملامح منفرجة وقال فرحاً « الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الاشياء كما يراها الآلهة »

ومرّ أعمى يجس الارض بعكازه وقال منتحباً « الحب ضباب كثيف يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود ويجعلها ان لا ترى سوى اشباح اميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي »

ومرّ شاب يحمل قيثارة وقال منغماً « الحب شعاع سحري ينبثق من اعماق اللذات الحساسة وينير جنباتها فنرى العالم موكباً سائراً في مروج خضراء والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة »

ومرّ هرم منحني الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال

مرتعشاً « الحب راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في أعماق الابدية »

ومرّ طفل ابن خمس وهتف ضاحكاً « الحب أبي والحب أمي ولا يعرف الحب سوى أبي وأمي »

* * *

وانقضى النهار والناس يمرون امام الهيكل وكلّ يصور نفسه متكلماً عن الحب ويبوح بامانيه معلناً سر الحياة

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحب هو النصف الملتهب »

فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يارب طعاماً للهيب — اجعلني أيها الاله مأكلاً للنار المقدسة . آمين »

أيها الليل

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

يا ليل الاشباح والارواح والاخيلة

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار

أيها الجبار الواقف بين اقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوّج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين الى اعماق الحياة ، المصغي بألف أذن الى أنة الموت والعدم

أنت ظلامٌ يرينا انوار السماء ، والنهار نور يغمرنا بظلمة الارض

أنت املٌ يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية ، والنهار غرورٌ يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الارواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والرغائب

أنت عادل يجمع بين جنحي الكرى احلام الضعفاء بامانيّ الاقوياء . وانت شفوق يغمض باصابعه الخفية اجفان التعساء ، ويحمل قلوبهم الى عالم اقل قساوة من هذا العالم

بين طيّبات اثوابك الزرقاء يسكب المحبون انفاسهم ، وعلى قدميك المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الاودية يضيع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فانت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الانبياء ، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين ، فانت ملقن الشعراء والموحي الى الانبياء والموعز الى المفكرين والمتأملين

* * *

عندما ملّتْ نفسي البشر وتعبت اجفاني من النظر الى وجه النهار سرت الى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع اشباح الازمنة الغابرة

هنالك وقفت امام كائن أقتم جامد مرتعش سائر بالف قدم فوق السهول والجبال والاودية

هنالك احدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لخفيف الاجنحة غير المنظورة شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستبسلاً أمام مخاوف الظلام

هنالك رأيتك ايها الليل شبحاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الارض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، ممنطقاً بالضباب ، ضاحكاً من الشمس ، ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين أمام الاصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج ، محملقاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب اسرة الاطفال ، باكياً لابتسام الساقطات ، مبتسماً لبكاء العشاق ، رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس

هناك رأيتك ايها الليل ورأيتني ، فكنت بهولك لي اباً وكنتُ باحلامي لك ابناً ، فأزحت من بيننا ستائر الاشكال وتمزق من وجهينا نقاب الظن والتخمين ، فابحت لي باسرارك ونواياك ، وابنتُ لك اماني وآمالي . حتى اذا تحولت اهوالك

الى انغام اعذب من همس الازهار ، وتبدلتْ مخاوفي بانسٍ اطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتني اليك ، واجلستني على منكبيك ، وعلمت عينيَّ النظر ، وعلمت اذنيَّ السمع ، وعلمت شفتيَّ الكلام ، وعلمت قلبي محبة ما لا يحبهُ الناس وكره ما لا يكرهونهُ ، ثم لمستَ باناملك افكاري فتدفقتْ افكاري نهراً راكضاً مترنماً بحرف الاعشاب الذابلة ، ثم قبَّلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلةً متقدة تلتهم الانصاب اليابسة

* * *

لقد صحبتك ايها الليل حتى صرتُ شبيهاً بك ، وألفتك حتى تمازجت اميالي باميالك ، واحببتك حتى تحول وجداني الى صورة مصغرة لوجودك . ففي نفسي المظلمة كواكبٌ متلمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح . وفي قلبي الرقيب قمرٌ يسعى تارةً في فضاء متلبد بالغيوم وطوراً في خلاء مفعم بمواكب الاحلام . وفي روحي الساهرة سكينة تبيح بتفاعيلها سرائر المحبين وترجع خلاياها صدى صلوات المتعبدين . وحول رأسي غلاف من السحر

تمزقه حشرجة المنازعين ثم تخيطه اغاني المتشبين

انا مثلك ايها الليل وهل يحسبني الناس مفاخراً اذا ما تشبهت بك وهم اذا تفاخروا يتشبهون بالنهار ؟

انا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه

انا مثلك باميالي واحلامي وخلقي واخلاقي

انا مثلك وان لم يتوجني المساءُ بغيومه الذهبية

انا مثلك وان لم يرصع الصباح اذيالي باشعته الوردية

انا مثلك وان لم أكن ممنطقاً بالمجرّة

انا ليل مسترسلٌ منبسطٌ هادىءٌ مضطربٌ وليس لظلمتي بدءٌ وليس لاعماقي نهاية ، فاذا ما انتصبت الارواح متباهيةً بنور افراحها تتعالى روحي متمجدةً بظلام كآبتها

انا مثلك ايها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي اجلي

الجنية الساحرة

الى اين تسيرين بي ايتها الساحرة ؟

حتى مَ اتبعكِ على هذه الطريق الوعرة ، المنسابة بين الصخور ، المفروشة بالاشواك ، المتصاعدة باقدامنا نحو الاعالي ، الهابطة بنفسينا الى الاعماق

قد تمسكتُ باذيالكِ وسرتُ وراءكِ كطفل يلاحق امه ، متناسياً ما بي من الاحلام ، محدقاً بما فيكِ من الجمال ، متعامياً عن مواكب الاشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة في جسدكِ

قفي بي هنيهةً لأرى وجهكِ . انظري اليَّ دقيقة لعلي أرى في عينيكِ اسرار صدركِ ، وافهم من ملامحكِ مخبآت نفسكِ

قفي قليلاً ايتها الجنّية فقد مللتُ المسير وارتعدت روحي من مخاوف الطريق . قفي فقد بلغنا ملتقى السبُل

حيث يعانق الموتُ الحياة ، ولن اسير خطوة اخرى حتى تستعلن روحي نيات روحكِ ، ويستوضح قلبي خزائن قلبك

* * *

اسمعي ايتها الجنية الساحرة

كنتُ بالامس طائراً حراً اتنقل بين السواقي واسبحُ في الفضاء واجلس على اطراف الغصون عند المساء متأملاً بالقصور والهياكل في مدينة الغيوم المتلونة التي تبنيها الشمس عند الاصيل وتهدمها قبل الغروب

بل كنتُ كالفكر اسير منفرداً في مشارق الارض ومغاربها ، فرحاً بمحاسن الحياة وملذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود واسراره

بل كنت كالحلم أسعى تحت جنح الليل وادخل من شقوق النوافذ الى خدور العذارى النائمات واتلاعب بعواطفهنّ . ثم اقفُ بجانب اسرة الفتيان واثير اميالهم ، ثم اجلس بقرب مضاجع الشيوخ واستجلي افكارهم

واليوم ، وقد لقيتكِ ايتها الساحرة ، وتسممت بقبل يديك فقد اصبحتُ مثلَ اسير اجرُّ قيودي الى حيثُ لا ادري ، بل صرتُ مثل نشوان استزيد من الخمرة التي سلبتني ارادتي وألثم الكف التي صفعت وجهي

* * *

ولكن قفي قليلاً ايتها الساحرة فها قد استرجعت قواي وكسرتُ القيود التي بَرَتْ قدمي وسحقتُ الكأس التي شربتُ منها السم الذي استطيبته، فماذا تريدين ان تفعل وعلى اية طريق تريدين ان نسير ؟

قد استردَّيتُ حرّيتي فهل ترضين بي رفيقاً حراً « يحدق بوجه الشمس باجفان جامدة ويقبض على النار باصابع غير مرتعشة » ؟

لقد فتحت جناحيّ ثانيةً فهل تصحبين فتى يصرفُ الايام متنقلاً كالنسر بين الجبال ، ويقضي الليالي رابضاً كالاسد في الصحراء ؟

هل تكتفين بحبّ رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيداً ؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

هل ترتاحين الى اميال نفس ترتعش امام العاصفة ولكنها لا تنهصر ، وتثور مع الزوابع ولكنها لا تنتلع من مكانها ؟

هل ترضين بي صاحباً لا يستعبد ولا يستعبد ؟

اذاً هذه يدي فهزّها بيدك الجميلة ، وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين ، وهذا في فمك قبلة طويلة عميقة خرساء

قبل الانتحار

في هـذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلستْ بالامس المرأة التي أحبها قلبي

الى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل، ومن هذه الكأس البلورية قد شربتْ جرعةً من الخمر ممزوجةً بقطرة من العطر

كل ذلك قد كان بالامس والامس حلم لا يعود، أما اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبها قلبي الى ارض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان

ان آثار اصابع المرأة التي أحبها قلبي لم تزل ظاهرة على بلور مرآتي، وعطر انفاسها ما برح متضوعاً بين طيات اثوابي، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي — ولكن المرأة نفسها — المرأة التي أحبها قلبي — قد رحلت الى مكان قصي يدعى وادي الهجر والسلوان، أما

آثار اصابعها وعطر لهاثها واشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد وعند ذلك افتح نوافذ منزلي لتدخل امواج الهواء وتجرف بتيارها كل ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء

ان رسم المرأة التي أحبها قلبي لم يزل معلقاً بجانب مضجعي ، ورسائل الحب التي بعثت بها اليّ ما برحت في العلبة الفضية المرصعة بالعقيق والمرجان ، وذؤابة الشعر الذهبية التي حبتني بها تذكاراً لم تخرج قط من الغلاف الحريري المبطن بالمسك والبخور — جميع هذه الاشياء ستبقى في اماكنها حتى الصباح — وعند مجيء الصباح افتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها الى ظلمة العدم — الى حيث تقطن السكينة الخرساء

ان المرأة التي أحبها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي أحببتهن قلوبكم أيها الفتيان . هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الافعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة

من الرماد وغرفة من زبد البحر

وقد عرفتُ المرأة التي أحبها قلبي ايام الطفولة فكنتُ اركض وراءها في الحقول واتمسك باذيالها في الشوارع

وعرفتها ايام الصبا فكنتُ ارى خيال وجهها في وجوه الكتب والاسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم المساء واسمع نغمة صوتها متصاعدةً مع خرير السواقي

وعرفتها ايام الرجولة فكنت اجالسها محدثاً واسألها مستفتياً واقترب منها شاكياً ما في قلبي من الاوجاع باسطاً ما في روحي من الاسرار

كل ذلك كان بالامس والامس حلم لا يعود أما اليوم فقد ذهبت تلك المرأة الى ارض بعيدة خاليـة مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان

* * *

أما اسم المرأة التي أحبها قلبي فهو الحياة

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا ، وتستغوي

ارواحنا ، وتغمر وجداننا بالوعود ، فان امطلتْ أماتتْ فينا الصبر وان ابرت ايقظت فينا الملل

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها

الحياة امرأة ترتدي بالايام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتأباه حليلاً

الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومَن يرَ عهرها يكره جمالها

يا بني امي

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون ان ابني لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام وهيا كل مسقوفة بالاحلام أم تريدون ان اهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وانقض ما رفعه المراؤن والخبثاء ؟

ماذا تريدون ان افعل يا بني أمي ؟

أأهدل كالحمائم لارضيكم أو ازمجر كالأسد لارضي نفسي

قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحتُ امامكم فلم تبكوا فهل تريدون ان اترنم وانوح في وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوّى جوعاً وخبز المعرفة اوفر من حجارة لاودية ولكنكم لا تأكلون . وقلوبكم تختلج عطشاً ومناهل لحياة تجري كالسواقي حول منازلكم فلماذا لا تشربون ؟

للبحر مدٌّ وجزرٌ ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء ، اما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم في سكينة الليل لاريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهبتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين « اين العدو لنصرعه » وعند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الاحلام

قلت لكم تعالوا نصعد الى قمة الجبل لاريكم ممالك العالم فاجبتم قائلين « في اعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي كهوفه قُبروا فكيف نتركه ونذهب الى حيث لم يذهبوا » ؟

قلتُ لكم هلموا نذهب الى السهول لاريكم مناجم الذهب وكنوز الارض فاجبتم قائلين « في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق »

قلت تعالوا نذهب الى الساحل حيث يعطي البحر

خيراته فاجبتم قائلين « ضجيج اللجة يخيف ارواحنا وهول الاعماق يميت اجسادنا »

* * *

لقد كنت احبكم يا بنو أمي وقد اضرّ بي الحب ولم ينفعكم . واليوم صرت اكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية

كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً واليوم صرتُ ارى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازاً وتنقبض ازدراءً .

كنتُ ابكي على ذلكم وانكساركم وكانت دموعي تجري صافية كالبلور ولكنها لم تغسل ادرانكم الكثيفة بل ازالت الغشاء عن عينيّ ولا بللت صدوركم المتحجرة بل اذابت الجزع في قلبي — واليوم صرت اضحك من اوجاعكم والضحك رعودٌ قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون أن اريكم اشباح وجوهكم في احواض المياه

الهادئة ؟ تعالوا اذن وانظروا ما اقبح ملامحكم

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك السهر عيونكم فاصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعدة ، وقبّل الموت شفاهكم فامست صفراء كاوراق الخريف

ماذا تطلبون مني يا بني أمي — بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها ؟

ارواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين واجسادكم ترتجف بين انياب الطغاة والسفاحين وبلادكم ترتعش تحت أقدام الاعداء والفاتحين ، فماذا ترجون من وقوفكم امام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصداء ورماحكم مكسورة الحراب وتروسكم مغمورة بالتراب فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء فلماذا تحيون والموتُ راحة الاشقياء

* * *

انما الحياة عزمٌ يرافق الشبيبة ، وجدّ يلاحق الكهولة وحكمة تتبع الشيخوخة ، اما انتم يابني أمي فقد ولدتم شيوخاً عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالاً تتقلبون على الاوحال وتترامون بالحجارة

انما الانسانية نهر بلوري يسير متدفقاً مترنماً حاملاً أسرار الجبال الى اعماق البحر . أما انتم يا بني أمي فمستنقعات خبيثة تدبُّ الحشرات في أعماقها وتتلوّى الافاعي على جنباتها

انما النفس شعلةٌ زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالانواء وتنير أوجه الالهة — أما نفوسكم يا بني أمي فرمادٌ تذريه الرياح على الثلوج وتبدده العواصف في الاودية

انا اكرهكم يا بني أمي لانكم تكرهون المجد والعظمة

انا احتقركم لانكم تحتقرون نفوسكم

انا عدوكم لانكم أعداء الالهة ولكنكم لا تعلمون!!!!

نحن وانتم

نحن أبناء الكآبة وانتم أبناء المسرّات

نحن أبناء الكآبة والكآبة ظل الله لا يسكن في جوار القلوب الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة والحزن كبير لا تساعهُ النفوس الصغيرة . نحن نبكي وننتحب ايها الضاحكون ومن يغتسل بدموعه مرّة يظل نقياً الى نهاية الدهور

انتم لا تعرفوننا أما نحن فنعرفكم . انتم سائرون بسرعة مع تيّار نهر الحياة فلا تلتفتون نحونا أما نحن فجالسون على الشاطىء نراكم ونسمعكم . انتم لا تعون صراخنا لان ضجيج الايام يملأ آذانكم أما نحن فنسمع اغانيكم لان همس الليالي قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لانكم واقفون في النور المظلم أما انتم فلا ترونا لاننا جالسون في الظلمة المنيرة

نحن أبناء الكآبة . نحن الانبياء والشعراء والموسيقيون .

نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الالهة ونملأ بحبات صدورنا حفنات الملائكة . وانتم — انتم أبناء غفلات المسرّات ويقظات الملاهي — انتم تضعون قلوبكم بين ايدي الخلوّ لان اصابع الخاوّ لينة الملامس وترتاحون بقرب الجهالة لان بيت الجهالة خالٍ من مرآة ترون فيها وجوهكم

نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي أما انتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرتقة القيود وعويل الهاوية

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من اجفان الليل في كبد الصباح . أما انتم فتبتسمون ومن جوانب افواهكم المبتسمة تهرق السخرية مثلما يسيل سم الافعى على جرح الملسوع

نحن نبكي لاننا نرى تعاسة الارملة وشقاء اليتيم وانتم تضحكون لانكم لا ترون غير لمعان الذهب . نحن نبكي لاننا نسمع انة الفقير وصراخ المظلوم وانتم تضحكون لانكم لا تسمعون سوى رنة الاقداح . نحن نبكي لان ارواحنا

منفصلة بالاجساد عن الله وانتم تضحكون لان اجسادكم تلتصق مرتاحةً بالتراب

***

نحن أبناء الكآبة وانتم أبناء المسرات فهلموا نضع مآتي كآبتنا واعمال مسرّاتكم أمام وجه الشمس

انتم بنيتم الاهرام من جماجم العبيد والاهرام جالسةٌ الآن على الرمال تحدث الاجيال عن خلودنا وفنائكم. ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الاحرار والباستيل لفظةٌ ترددها الامم فتباركنا وتلعنكم. انتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء واقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء وها قد اصبحت بابل ونينوى نظير آثار اخفاف الابل على رمال الصحراء. أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً وضربنا النهاوند على الاوتار فاستحضرت الاوتار أرواح المحبين الحائمة في الفضاء ورسمنا مريم بالخطوط والالوان فغدت الخطوط كافكار الالهة والالوان كعواطف الملائكة

انتم تتبعون الملاهي واظافر الملاهي مزّقت الفـ الف من الشهداء في مراسح رومة وانطاكية . ونحن نلاحق السكينةً واصابع السكينة نسجت الالياذة وسفر ايوب والتائية الكبرى . أنتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت الف موكب من أرواح النساء الى هاوية العار والفجور ونحن نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي . انتم تسامرون المطامع واسياف المطامع اجرت الف نهر من الدماء ونحن نرافق الخيال وايدي الخيال انزلت المعرفة من دائرة النور الاعلى

* * *

نحن أبناء الكآبة وانتم أولاد المسرّات وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة المسالك ضيقة المعابر لا تجتازها خيولكم المطهمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة

نحن نشفق على صغارتكم وانتم تكرهون عظمتنا وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم

نحن ندنو منكم كالاصدقاء وانتم تهاجموننا كالاعداء
وبين الصداقة والعداوة هوتة عميقة مملوءة بالدموع والدماء

نحن نبني لكم القصور وانتم تحفرون لنا القبور وبين
جمال القصر وظلمة القبر تسير الانسانية باقدام من حديد

نحن نفرش سبلكم بالورود وانتم تفمرون مضاجعنا
بالاشواك وبين أوراق الوردة واشواكها تنام الحقيقة نوماً
عميقاً ابدياً

منذ البدء وانتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن.
تغلبوننا ساعة فتضجون فرحين كالضفادع وتغلبكم دهراً
فنظل صامتين كالجبابرة . قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله
تسخرون به وتجدفون عليه ولكن لما انقضت تلك الساعة
نزل من عن صليبه وسار كالجبار يتغلب على الاجيال بالروح
والحق ويملأ الارض بمجده وجماله

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم
بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا وهؤلاء يحيون الآن
كالابطال الظافرين أمام وجه الابدية . أما انتم فتعيشون في

ذاكرة الانسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم

نحن أبناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيراً ومعرفة وانتم ابناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهي كاعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبددها العناصر

obeikandl.com

ابناء الالهة واحفاد القرود

ما أغرب الدهر وما أغربنا فقد تغير الدهرُ وغيّرنا وسار الى الامام وسيّرنا واسفر عن وجهه فاذهلنا وفرّحنا

كنا بالامس نشكو الدهر ونخشاه فاصبحنا اليوم نصحبه ونهواه، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم اسراره وخفاياه

بالامس كنا ندبٌ متحذرين كالاشباح المرتعشة بين اهوال الليل ومخاوف النهار، فاصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو أمم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة والرعود القاصفة

كنا بالامس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً بالدموع فصرنا اليوم نتناول المنّ من ايدي عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بانفاس الربيع

بالامس كنا ألعوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملاً يتلوّى بنا الى اليمين والى اليسار ، أما اليوم فقد صحا القضاء من سكره فاصبحنا نلاعبه فيلعب وندا عبه فيضحك ثم نقوده وراءنا فينقاد

كنا بالامس نحرق البخور أمام الاصنام وننحر الضحايا امام الالهة الغضوبة اما اليوم فصرنا لانحرق بخوراً الا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحةً لغير ذواتنا لان أعظم الالهة وابهاهم جمالاً قد جعل هيكله في صدورنا

بالامس كنا نخضع للملوك ونلوي رقابنا أمام السلاطين اما اليوم فصرنا لا ننحني الا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى المحبة

كنا بالامس نخشع ابصارنا أمام الكهان ونتهيب رؤيا العرّافين اما اليوم وقد تغير الدهر وغيّرنا فاصبحنا لا نحدق في غير وجه الشمس ولا نصغي الا لنغمة البحر ولا نهتز الا مع الزوابع

بالامس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبني من قوائمها قبوراً

لاجدادنا أما اليوم فقد تحوّلت نفوسنا مذابح مقدسة لا تدنو منها اشباح القرون الغابرة ولا تلامسها اصابع الاموات البالية

كنا فكراً صامتاً مختبئاً في زوايا النسيان فاصبحنا صوتاً صارخاً ترتجف له اعماق الفضاء

كنا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد فصرنا ناراً متقدة فوق اكتاف الاودية

* * *

وكم سهرنا الليالي متوسدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلفٍ اضعناه ورزق فقدناه . وكم صرفنا الايام رابضين كنعاج لا راعي لها نقضم أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظلّ جائعين ظامئين . وكم وقفنا بين نهارٍ زائل ومساءٍ آت نائحين على شباب ذابل مشتاقين الى من لا نعرفه مستوحشين لاسباب نجهلها محدقين بفضاءٍ خال مظلم ، مصغين الى انّة السكون والعدم

تلك أجيال مرّت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، اما اليوم وقد صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نقضي الليالي البيضاء

على اسرّة علوية ، مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين الاميال ، تمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها باصابع غير مرتعشة وتتصاعد حولنا أرواح الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، وتمرُّ بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا ونسكرها بنغمة أرواحنا

* * *

كنا بالامس واصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الالهة بابناء الالهة ، فما هي ارادتكم يا أبناء القرود ؟

هل سرتم خطوة واحدة الى الامام منذ انبثقتم من شقوق الارض ؟ ام رفعتم ابصاركم نحو الاعالي منذ فتحت الشياطين أبصاركم ؟ أم تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبّلت أفواه الافاعي افواهكم ؟ أم اصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ اغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين الف سنة مررتُ بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الازقة القذرة وأبالسة

الخمول تقودكم وقيود العبودية تتمسك باقدامكم واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فانتم اليوم كما كنتم بالامس وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتكم في البدء

كنا بالامس فاصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بابناء الالهة فما هي سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟

obeikandl.com

بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك

اسكت فالاثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل اغانيك واناشيدك

اسكت فاشباح الليل لاتحفل بهمس أسرارك. ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك

اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقي الصباح قوياً . ومن يهوى النور فالنور يهواه

اسكت يا قلبي واسمعني متكلماً

في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور

ورأيتُ طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك

رأيتُ جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ولكني لم أسمع الشحرور مغرداً ولا رأيته مرفرفاً

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والاودية ساتراً باكفانه البيضاء اجسام الزنابق الهامدة

ورأيت القبور صفوفاً منتصبةً أمام سكينة الدهور وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا من يحثو مصلياً

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح

في اليقظة رأيت الحزن والاسى فاين ذهبت افراح الحلم ومسراته ؟

أنّى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيها وآمالها ؟

اصغَ يا قلبي واسمعني متكلماً

كانت نفسي بالامس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها الى أعماق الارض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية

ولقد ازهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ولما جاء الخريف جمعتُ اثمارها في اطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق . فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون في سبيلهم

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة نظرتُ فلم أرَ في اطباقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي . فتناولتها واكلت فألفيتها مرّةً كالعلقم ، حامضة كالحصرم . فقلت لنفسي : « ويحي لقد وضعتُ في افواه الناس لعنةً ، وفي اجوافهم عداء . فماذا ترى فعلتِ يا نفسي بالحلاوة التي امتصتها عروقكِ من احشاء الارض ، وبالاريج الذي تشربته قضبانكِ من نور الشمس ؟ »

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسي القوية المسنّة

اقتلعتها بعروقها من التربة التي نمت فيها وترعرعت

اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى الف ربيع والف خريف

وعدتُ فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلاً ان السهر يدنينا من النجوم . وكنت اسقيها بدمي ودموعي قائلاً ان في الدم نكهة ، وفي الدموع حلاوة

ولما عاد الربيع ازهرت نفسي ثانيةً

وفي الصيف اثمرت نفسي . ولما جاء الخريف جمعتُ اثمارها الناضجة باطباق من الذهب . ووضعتها على ملتقى السبل . فمرّ الناس افراداً جماعات ولكن لم يمد أحدٌ يده ليتناول منها

فاخذت اذ ذاك ثمرةً واكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذيذة كالكوثر ، طيبة كالخمرة البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين . فصرختُ قائلاً : « ان الناس لا يريدون البركة في افواههم ولا الحق في اجوافهم لان البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء »

ثم عدتُ وجلست في ظل شجرة نفسي المنفردة في حقل بعيد عن سبل الزمن

* * *

اسكت يا قلبي حتى الصباح

اسكت ، فالفضاء قد اتخمته رائحة الاشلاء فلن يتشرب أنفاسك

اصغَ يا قلبي واسمعني متكلماً

كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين امواج البحار وتتنقل مع الاهواء من شاطىء الى شاطىء

ولقد كانت سفينة فكرتي خاليةً الا من سبعة اكواب طافحة بالوان مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها

وجاء زمنٌ مللتُ فيه التنقل على وجه البحار فقلتُ سأعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البلد الذي ولدت فيه

ثم أخذتُ اطلي جوانب سفينتي بالوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشقيق ، وأرسم على شراعها ودفّتها رسوماً غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة . ولما انتهيت من عملي وقد ظهرتْ سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين ،

البحر والسماء، دخلتُ ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم وادخلوني المدينة ضاربين الدفوف، ناخفين الزمور

فعلوا ذلك لان خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً

ولم يدخل احد جوف سفينة فكرتي

ولم يسأل احدٌ ماذا جلبت فيها من وراء البحار

ولم يدرِ احدٌ اني عدتُ بها فارغةً الى الميناء

عند ذلك قلت في سري: «لقد ضللت الناس. وبسبعة اكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وابحرتُ ثانيةً

سرتُ الى جزر الشرق فجمعتُ منها المرّ واللبان والند والصندل وادخلتها الى سفينتي

والى جزر الجنوب فجلبتُ منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة

والى جزر الشمال فعدتُ منها بالخز والوشي والبرفير

والى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف المشرفية والرماح السمهرية وسائر انواع الاسلحة

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الارض وغرائبها ، وعدتُ الى ميناء بلدي قائلاً : « سوف يمجدني قومي ، ولكن عن جدارة . وسيدخلوني المدينة منشدين مزمرين ، ولكن عن استحقاق

ولكن لما بلغتُ الميناء لم يخرج احد لملاقاتي ، ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت اليَّ احد

ووقفت في ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفها فكانوا ينظرون اليَّ والضحك ملء افواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عني

فعدت الى الميناء كئيباً مستغرباً . ولكنني ما لمحتُ سفينتي حتى فطنت لامر كنت مشغولاً عنه بمنازع اسفاري ورغائبها . فهتفتُ قائلاً : « ان امواج البحار قد محت الطلاء من جوانب سفينتي فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الارياحُ والانواء وحرارة الشمس الرسوم عن شراعها

فظهرت كأثواب رمادية بالية »

لقد جمعتُ طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه الماء وعدتُ الى قومي فنبذوني لان عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية

في تلك الساعة تركت سفينة فكرتي وذهبت الى مدينة الاموات وجلستُ بين القبور المكاسة مفكراً باسرارها

اسكت يا قلبي حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس اعماقك ، وكهوف الوادي لن ترجع بصداها رنات اوتارك

اسكت يا قلبي حتى الصباح فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام

هوذا موكب الصباح يا قلبي فهل ابقى سكوت الليل في اعماقك أغنية تلاقي بها الصباح ؟

هوذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلةً في اطراف الوادي ، فهل أبقى هول الليل في جنحيك صلابةً لتطير معها ؟

هوذا الرعيان يسيرون امام قطعانهم من الحظائر والمرابض فهل أبقت لك اشباح الليل عزماً لتسير وراءها الى المروج الخضراء ؟

هوذا الفتيان والصبايا يمشون الهوينا نحو الكروم ، فهلاً نهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . ومخاوف الليل قد اضمحلت مع احلامه السوداء

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً فمن لا يشارك الصبح باغانيه كان من ابناء الظلام

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون »

« هو خيالي يكتب ليفسد اخلاق الناشئة »

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت اركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيماً وسكانه شياطين »

« قهراً عما في اسلوبه الكتابي من الجمال فهو من اعداء الانسانية »

« هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بان ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم »

« قد قرأنا له الاجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم »

* * *

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون ، فانا متطرف حتى الجنون ، اميل الى الهدم ميلي الى البناء ، وفي

قلبي كرهٌ لما يقدسه الناس وحبٌّ لما يأبونه ، ولو كان بامكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . أما قول بعضهم ان كتاباتي « سم في دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف — فالحقيقة العارية هي انني لا امزج « السم » بالدسم بل اسكبه صرفاً .. غير انني اسكبه في كؤوس نظيفة شفافة

أما الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين « هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه « سماً » لان معدهم الضعيفة لا تهضمه

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها افضل من الخباثة بنعومتها ؟ ان الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخباثة فترتدي بملابس فصلت لغيرها

* * *

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي

تطوف مرفرفةً في الحقول جامعة حلاوة الازهار لتصنع منها اقراصاً من العسل

ان الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلاً ، وقد افرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم الى عسل تسيل امام النار ولا تتجمد الا اذا وضعت على الثلج

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي ايامنا هذه مدّاحون يضارعون المتنبي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنئون اكثر طلاوة من صفي الدين الحلي

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات الفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم

ما قاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحكم والآيات التي اذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الافيون

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون الى الامور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادىء والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة

* * *

انما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الاوبئة حتى تعوّد السقم وألف الالم وأصبح ينظر الى اوصابه واوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الارواح النبيلة والاجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عُدَّ ناقصاً محروماً المواهب والكمالات العلوية

واطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون

في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الانواع متعددة الاشكال متباينة الالوان . وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الامراض والعاهات عن بعضها بعضاً . وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له اطباء الشرق مخدراً جديداً

وأما الاسباب التي آلت الى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل الى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الاطباء وخوفهم من تهييج الالم الذي تحدثه الادوية الناجعة

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الاطباء الشرقيون لمعالجة الامراض العائلية والوطنية والدينية :

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لاسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن

لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع اهل الرجل باهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والافكار المرصعة ثم يتفقوا على ايجاد السلام بين الزوجين فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالاقوال والامثال المزركشة التي تلين افكاره ولا تغيرها . وهكذا يتم الصلح — الصلح الوقتي — بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودا قهرا عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الاهل والانسباء فيعود الرجل الى اظهار نفوره ومقته والمرأة الى ازالة النقاب عن تعاستها . غير ان الذين اوجدوا الصلح في المرة الاولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون « جمعية اصلاحية » ترمي الى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون « اللوائح والبرامج » ويبعثون « الوفود والممثلين » ولكن لا يمر شهر أو شهران

حتى نسمع بان الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت اليه بوظيفة . أما الجمعية « الاصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان افرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا الى السكينة والاستسلام

تتمرد طائفة على رئيس دينها لامور اولية فتنتقد شخصه وتنكر اعماله وتتبرم من مآتيه ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر اقرب الى العقل وأبعد عن الاوهام والخرافات . ولكن لا يمر ردح من الزمن حتى نسمع بان عقلاء البلاد قد ازالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وارجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة الى شخص الرئيس والطاعة العمياء الى نفوس المرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره « اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقر »

يشك القروي بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له زميله « اصمت فقد جاء في الكتاب اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم »

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له استاذه « ان الكسالى المتوانين يختلقون لنفوسهم اعذاراً اقبح من الذنوب »

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة افضل من أمها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنتِ ايضاً »

يسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من لا ينظر بعين الايمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان »

وهكذا تمر الايام اثر الليالي والشرقي متضجع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عند ما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلاً بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فاذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون اجفانهم المطبقة بالنعاس الابدي ثم يقولون متثائبين « ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس أن يناموا » ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان ارواحهم

« هو كافر ملحد يفسد اخلاق الناشئة ويهدم مباني الاجيال ويرشق الانسانية بالسهام السامة »

* * *

قد سألت نفسي مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يحدقون على اسمي ويتأففون من مبادئي ايقنت بحقيقة يقظتي وعلمت انني لست من المستسلمين الى الاحلام اللذيذة والخيالات المستحبة بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالاشواك والازهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعني الاحتشام عن ادعائها ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للافراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر ارادتهم مجذوبين باسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة

وعندي أن الاحتشام في اظهار الحقائق الشخصية هو

نوع من الرياء الابيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب

* * *

غداً يقرأ « الادباء المفكرون » ما تقدم فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر الى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا »

فلهؤلاء الادباء المفكرين اقول — أنا اندب الشرق لان الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق

انا ابكي على الشرقيين لان الضحك على الامراض جهل مركب

انا انوح على تلك البلاد المحبوبة لان الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء

انا متطرف لان من يعتدل باظهار الحق يبين نصف الحق ويبقي نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم

انا ارى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب احشائي

ولا استطيع أن اجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى

فان كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي الى الانعطاف وتطرفي الى الاعتدال فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه

ان كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني مطبلاً ومزمراً فعليه أن يدعوني الى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر

السرجين المفضض

— ١ —

سلمان افندي :

هو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معكوفين وحذاء لامع ، يلبس الاجربة الحريرية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويحمل بيده الناعمة عصاة جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل في المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم وأشرافهم ويذهب الى المتنزهات المشهورة في مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان

ولم يرث سلمان افندي المال عن ابيه لان أباه رحمه الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ولا جدّ متاجراً فاكتسب ثروة لانه كسلان متوانٍ يكره العمل ويظنه محطّاً بمقامه وقد

سمعناه مرةً يقول « ان جسدي واخلاقي لا تساعدني على الشغل ، فالشغل قد وجد لذوي الاخلاق الباردة والاجساد الخشنة »

اذاً كيف حصل سلمان افندي على المال وأي ساحر حول التراب في كفيه الى فضة وذهب ؟

ذاك سرٌّ من اسرار السرجين المفضض اعلنه لنا عزرائيل ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة اعوام تزوج سلمان افندي من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذي اشتهر بين اترابه بالجد والمواظبة والامانة. وقد كانت حينئذٍ السيدة فهيمة في الخامسة والاربعين من عمرها وفي السادسة عشرة من سني عواطفها واميالها. وهي الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلي وجهها بالالوان والمساحيق ولكنها لا ترى سلمان افندي قبل نصف الليل وقلما حظيت منه بغير النظرات الحادة والالفاظ القاسية فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها زوجها الاول بكده وعرق جبينه

— ٢ —

اديب افندي :

فتىً في السابعة والعشرين من عمره ، ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالحبر واظافر محشوة بالاوساخ . أما ملابسه فممزقة الاطراف وعلى حواشيها بقعٌ من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات اهماله وانشغال باله بالامور المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الالهية . . . وقد سمعناه يقول مستشهداً بامين الجندي « ان القريحة لا تنصرف الى شيئين » أي ان الاديب لا يستطيع أن يميل الى صناعة القلم والى النظافة في وقت واحد !

اديب افندي يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً فهو منصرف عن كل شيء الى الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامين في احدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الاساتذة

المشهورين ونظم الشعر وانشأ الرسائل والمقالات ولكنه للآن لم ينشر منها شيئاً لاسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغباوة القراء !

وقد انصرف اديب افندي في الآونة الاخيرة الى استطلاع خفايا الفلسفة القديمة والحديثة فهو معجب بسقراط ونيتشي في وقت واحد ! ويميل الى اقوال القديس أغسطينس ميله الى كتابات فولتر وجان جاك روسو ! وقد لقيناه مرةً في عرس والناس حوله ينشدون الاهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناه مرة أخرى سائراً في جنازة وجيه والمشيعون يمشون الى جانبه برؤوس منخفضة وملامح مكتئبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبي نواس وغزليات الفارض !

لماذا يا ترى يعيش اديب افندي وما الغرض من صرفه الايام والليالي بين الكتب العتيقة والاوراق البالية ؟ ولماذا لا يقتني له حماراً ويصير من عداد المكارين الاقوياء النافعين ؟

ذاك سر من اسرار السرجين المفضض اعلنه لنا بعازبول ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم اديب افندي قصيدةً في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وانشدها امامه في دار حبيب بك سلوان ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسماً « عافاك الله يا ابني فما ابلغك شاعراً وما اذكاك اديباً ، فانا افتخر بامثالك ولا اشك بانك ستكون من رجال الشرق الكبار »

ومن تلك الساعة الى الآن ووالد اديب افندي وعمه وخاله ينظرون اليه معجبين ويتحدثون عنه مفاخرين قائلين « أوَ لم يقل المطران يوحنا شمعون انه سيكون من رجال الشرق العظام ؟ »

— ٣ —

فريد بك دعيبس :

هو رجل يناهز الاربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشي متثاقلاً

بصدر منتفخ وعنق مستطيل وخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقلّ هودجاً . وعند ما يتكلم بصوته الجهوري واسلوبه الفخم تخاله ان لم تكن تعرفه احد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمين بتكييف أمور العباد

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس في صدور المحافل وتعداد مآتي أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم وهو مغرم بسرد اخبار الرجال العظام واعمال الابطال الكبار كنابليون وعنترة العبسي ، وله ولع خاص بالاسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لا يحسن استعمالها !

ومن اقواله المأثورة « ان الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها للرئاسة ومنها للخدمة » ومنها « انما الشعب حمار حرون لا يسير الا اذا علوت ظهره » ومنها « القلم للضعفاء أما السيف فللاشداء . . . »

وما هي الاسباب التي تجعل فريد بك أن يتمجد متغطرساً ويتجبر متعجرفاً ويزهو مختالاً متبذخاً متبجحاً ؟

ذاك سرٌّ من اسرار السرجين المفضض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

في الثلث الاول من القرن التاسع عشر بينما كان الامير بشير الشهابي سائراً بكوكبة من رجاله بين اودية لبنان مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيبس جد فريد بك دعيبس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الارض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الامير قائلاً لرجاله « تعالوا نرتاح في ظلال تلك السنديانة »

وعلم منصور دعيبس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين واخبرهم بوجود الامير الكبير على مقربة من قريتهم فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين اطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيبس وقبل اطراف اذيال الامير ثم نحر كبشاً امامه وهتف قائلاً « هذا من خير اميرنا وولي نعمتنا »

فسرّ الامير بأريحته وخلع عليه قائلاً « ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولاً بنظري

الخصوصي . وقد أعفيت سكان قريتك من الاموال الاميرية في هذه السنة »

في تلك الليلة بعد ان تابع الامير مسيره اجتمع في بيت (الشيخ) منصور دعيبس جميع سكان القرية ونادوا به رئيساً مطاعاً في السراء والضراء — رحمهم الله جميعاً

* * *

وللسرجين المفضض اسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والابالسة في كل يوم وليلة وسوف تظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر الى ما وراء الشفق الازرق . اما الآن وقد انتصف الليل ومالّت اجفاننا السهر فاسمحوا لنا ان ننام لعل عروس الاحلام تحمل روحنا الى عالم انظف من هذا العالم

رؤيا

عند ما جنّ الليل والقى الكرى رداءه على وجه الارض تركتُ مضجعي وسرت نحو البحر قائلاً في نفسي « البحر لا ينام . وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام »

بلغت الشاطىء وكان الضباب قد انحدر من اعالي الجبال وغمر تلك النواحي مثلما يوشي النقاب الرمادي وجه الصبية الحسناء . فوقفت محدقاً بجيوش الامواج . مصغياً الى تهاليلها . مفكراً بالقوى السرمدية الكامنة وراءها — تلك القوى التي تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنم مع الجداول

وبعد هنيهة التفتُ فاذا بثلاثة اشباح جالسين على صخر قريب واغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم . فمشيت نحوهم ببطء كأن في كيانهم جاذباً يستميلني قسر ارادتي

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن في المكان سحراً أجمد ما بي من العزم وايقظ ما في روحي من الخيال

في تلك الدقيقة وقف احد الاشباح الثلاثة . وبصوت يخلته آتياً من اعماق البحر قال :

— « الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا اثمار . والحب بغير الجمال كازهار بغير عطر . واثمار بغير بذور . . . الحياة والحب والجمال — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة مستقلة . مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال » . قال هذا وجلس في مكانه

ثم انتصب الشبح الثاني . وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :

— « الحياة بغير تمرّد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء ... الحياة والتمرد والحق — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير »

ثم انتصب الشبح الثالث . وبصوت كقصف الرعد قال :

— « الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة ... الحياة والحرية والفكر — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة ازلية لا تزول ولا تضمحل »

ثم وقف الاشباح الثلاثة . وباصوات هائلة قالوا معاً :

— « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما تنميه — ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل »

وحدث اذ ذاك سكوت مفعم بحفيف اجنحة غير منظورة وارتعاش اجسام اثيرية . فاغمضت عينيّ مصغياً الى صدى الاقوال التي سمعتها . ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أرَ غير البحر متشحاً بدثار الضباب فاقتربت من الصخرة حيث كان الاشباح الثلاثة جالسين فلم أرَ الا عموداً من البخور متصاعداً نحو السماء

في ظلام الليل

(كتبت ايام المجاعة)

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضاً

في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا . واجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف الى الهاوية ارواحنا . أما عيناه الملتهبتان فمحدقتان بالشفق البعيد

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف . وليس فينا من له أمل بالوقوف

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه وكلما التفت الموت الى الوراء يسقط منا الف الى جانبي الطريق ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ومن لا يسقط يسير قسر ارادته

عالماً بانه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا . أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد

في ظلام الليل ينادي الاخ اخاه والاب ابناءه والام اطفالها وكلنا جائعون لاغبون متضورون . أما الموت فلا يجوع ولا يعطش فهو يلتهم ارواحنا واجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوي

في الهزيع الاول من الليل ينادي الطفل أمه قائلاً « يا اماه انا جائع » فتجيبه الام قائلة « اصبر قليلاً يا ولداه »

وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل امه ثانية قائلاً « يا اماه انا جائع فاعطيني خبزاً » فتجيبه « ليس لديَّ خبز يا ولداه »

في الهزيع الثالث يمر الموت بالام وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق، أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد

في الصباح يذهب الرجل الى الحقول طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهيرة يعود الى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين

ولما يجيء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب الى المدينة وفي جيبه حلى امه واختيه ليبتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود الى قريته بلا قوت ولا حلى فيجد امه وابنتيها راقدات أما عيونهن فلم تزل شاخصة باللاشيء فيرفع ذراعيه نحو السماء ثم يهبط الى الحضيض كطائر رماه الصياد . وفي المساء يمر الموت بقرب الفلاح وامه واختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد

في ظلام الليل . وليس لظلام الليل نهاية . نناديكم ايها السائرون في نور النهار فهل انتم سامعون صراخنا ؟

قد بعثنا اليكم ارواح امواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟ وحمّلنا الهواء الشرقي من انفاسنا حملاً فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة والقى بين ايديكم احماله الثقيلة ؟ هل

عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لانقاذنا ام وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم « ماذا عسى يستطيع الجالسون في النور ان يفعلوا لابناء الظلام ، فلندع الموتى أن يدفنوا اموانهم ولتكن مشيئة الله »

أي ، لتكن مشيئة الله

ولكن هلا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم الى ما فوق نفوسكم ليصيركم الله مشيئةً له وعوناً لنا ؟

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضاً

في ظلام الليل ينادي الاخ اخاه والام ابنها والزوج زوجته والمحب حبيبته . وعند ما تمازج اصواتنا وتتعالى الى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكاً منا مستهزئاً بنا ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد

الاضراس المسوسة

كان في فمي ضرس مسوس ـ وكان يحتال على تعذيبي فيسكن متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً في هدوء الليل عند ما يكون اطباء الاسنان نائمين والصيدلية مقفلة

ففي يوم وقد نفد صبري ذهبت الى احد الاطباء وقلت له « ألا فانزعه ضرساً خبيثاً يحرمني لذة الرقاد ويحول سكينة لياليَّ الى الانين والضجيج »

فهزَّ الطبيب رأسه قائلاً « من الغباوة ان نستأصل الضرس اذا كان بامكاننا تطييبه »

ثم أخذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتفنن بتطهيره من العلة . ولما وثق بانه صار خالياً من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص ثم قال مفاخراً « لقد اصبح ضرسك العليل اشد واصلب من اضراسك الصحيحة »

فصدقتُ كلامه وملأتُ حفنته بالدنانير وذهبت فرحاً

ولكن لم يمر الاسبوع حتى عاد الضرس المشوم الى تعذيبي وابدال انغام روحي بحشرجة الاحتضار وعويل الهاوية

فذهبت الى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم « ألا فاخلعه ضرساً مذهباً شريراً — ولا تعترض (فمن يأكل العصي لا كمن يعدها) »

فنزع الطبيب الضرس وقد كانت ساعة هائلة باوجاعها ولكنها كانت ساعة مباركة

وقد قال لي الطبيب بعد ان استأصل الضرس وتفحصه جيداً « لقد فعلت حسناً — فالعلة قد تحكمت باصول ضرسك هذا حتى لم يبقَ رجاء بشفائه

وقد نمت مرتاحاً في تلك الليلة — ولم ازل في راحة والحمد للخلع والاستئصال

* * *

في فم الجامعة البشرية اضراس مسوّسة وقد نخرتها

العلة حتى بلغت عظم الفك ، غير ان الجامعة البشرية لا تستأصلها لترتاح من اوجاعها بل تكتفي بتمريضها وتنظيف خارجها وملء ثقوبها بالذهب اللماع

وما اكثر الاطباء الذين يداوون اضراس الانسانية بالطلاء الجميل والمواد البرّاقة . وما اكثر المرضاء الذين يستسلمون الى مشيئة أولئك الاطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثم يموتون بعلتهم مخدوعين

غير ان الامة التي تعتل ثم تموت لا تبعث ثانية لتظهر للملأ اسباب الامراض المعنوية وماهية الادواء الاجتماعية التي تؤول بالامم الى الانقراض والعدم

* * *

وفي فم الامة السورية اضراس باليـة سوداء قذرة ذات رائحة كريهة . وقد حاول اطباؤنا تطهيرها وحشوها بالمينا وإلباس خارجها رقوق الذهب ولـكنها لا تشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والامة التي تكون اضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة وكم أمة ذهبت شهيدة عسر الهضم

ومن شاء أن يرى اضراس سوريا المسوّسة فليذهب الى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الاخفش نقلاً عن سيبويه . وسيبويه عن سائق الاظعان

أو فليذهب الى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البلهواني بالقضايا الشرعية مثلما تلعب القطة بصيدتها

أو فليذهب الى منازل المؤثرين حيث التصنع والكذب والرياء

أو فليذهب الى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة

وبعد ذلك فليذهب الى اطباء الاسنان ذوي الاصابع الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة الذين يصرفون الايام باملاء ثقوب الاضراس المسوّسة وتطهير زواياها المعتلة. واذا اراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات ، ففي حديثهم نغمة اسمى من اناشيد حجر الرحى وانبل من أغاني الضفادع في ليالي تموز

ولكن اذا قال لهم « ان الامة السورية تنضم قوت الحياة باضراس مسوّسة وان كل لقمة تلوكها تمتزج بلعاب مسمم وانه قد نتج عن ذلك مرض في امعائها » ـ اذا قال هذا يجيبونه بقولهم « نعم ونحن الآن منصرفون الى درس احدث المساحيق وأجد المخدرات »

واذا قال لهم « ما قولكم بالاستئصال » يضحكون منه لانه لم يدرس طب الاسنان الشريف

واذا أعاد السؤال ثانية يتعدون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم « ما اكثر الخياليين في هذا العالم وما أوهى احلامهم »

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام المدينة فشعشعت الانوار في القصور والمنازل وخرج الناس الى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لهاثهم تنبعث رائحة المآكل والخمور . . .

أما انا فسرت وحيداً منفرداً منبتعداً عن الزحام والضجيج افكر بصاحب العيد

افكّر بنابغة الاجيال الذي وُلد فقيراً وعاش متجرداً ومات مصلوباً . . .

افكر بالشعلة النارية التي اوقدها الروح الكلي في قرية حقيرة بسوريا فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية . .

ولما بلغتُ الحديقة العمومية جلست على مقعد خشبي

انظر من خلال اغصان الاشجار العارية نحو الشوارع المزدحمة واسمع عن بعد اناشيد المعيدين السائرين في موكب اللهو والخلو . . .

وبعد ساعة مفعمة بالافكار والاحلام التفتُ واذا برجل جالس بقربي على المقعد وفي يده عصاه يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب . . فقلت في نفسي « هو مستوحد مثلي » ثم تفرستُ فيه متبصراً شكله فالفيته رغم اثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوّش ذا هيبة ووقار . . وكأنه قد شعر بانني انظر اليه متفحصاً شكله وملامحه فالتفت نحوي وقال بصوت عميق هادىء « مساء الخير »

فارجعت التحية قائلاً « اسعد الله مساءك »

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الارض . وبعد هنيهة وقد اعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً « هل انت غريب في هذه المدينة »

فاجاب « انا غريب في هذه المدينة وانا غريب في كل مدينة أخرى »

قلت « ان الغريب في مثل هذه المواسم يتناسى ما في الغربة من الضيم والوحشة لما يجده في الناس من الانس والانعطاف »

فاجاب « انا غريب في مثل هذه الايام اكثر مني في غيرها »

قال هـذا ونظر الى الفضاء الرمادي فاتسعت عيناه وارتعشت شفتاه كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطنٍ بعيد . .

قلت « ان القوم في هذه المواسم يعطفون على بعضهم البعض فالغني يذكر الفقير والقوي يرحم الضعيف »

فاجاب « نعم وما رحمـة الغني بالفقير سوى نوع من حب الذات وليس انعطاف القوي على الضعيف الا شكلاً من التفوُّق والافتخار »

قلت « قد تكون مصيباً ولـكن ماذا يهم الفقير الضعيف ما يجول في باطن الغني القوي من الرغائب والاميال ؟ . ان الجائع المسكين يحلم بالخبز ولـكنه لا يفكر

في الكيفية التي يعجن بها الخبز »

فاجاب « ان الموهوب لا يفتكر أما الواهب فيجب عليه أن يفتكر ويفتكر طويلاً »

فاعجبت بكلامه وعدت اتأمل منظره الغريب واثوابه القديمة . . .

وبعد سكينة نظرتُ اليه قائلاً « يلوح لي انك في حاجة فهلاّ قبلت درهماً او درهمين ؟ »

فاجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامةٌ محزنة « نعم انا بحاجة ولكن الى غير المال »

قلت « وماذا تحتاج ؟ »

فقال « انا بحاجة الى مأوى . . انا بحاجة الى مكان أسند اليه رأسي »

قلت « خذ مني درهمين واذهب الى النزل واستأجر غرفة »

فاجاب « قد ذهبت الى كل نزل في هذه المدينة فلم

أجد لي مأوًى وطرقت كل باب فلم ارَ لي صديقاً ودخلت كل مطعم فلم أعطَ خبزاً »

فقلت في نفسي ما اغربه فتى يتكلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون

ولكن لم اهمس « لفظة » مجنون في اذن روحي حتى حدّق بي شاخصاً ورفع صوته عن ذي قبل وقال « نعم انا مجنون ومن كان مثلي يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام »

قلت مستدركاً مستغفراً « سامح ظنوني فانا لا اعرف من انت وقد استغربت كلامك فهلاَّ قبلت دعوتي وذهبت معي لتصرف الليلة في منزلي »

فاجاب « قد طرقت بابك الف مرة ولم يفتح لي »

قلت وقد تحققت جنونه « تعال الآن واصرف الليلة في منزلي »

فرفع رأسه وقال « لو عرفت من انا لما دعوتني »

فقلت « ومن انت »

قال وفي صوته هدير مياه غزيرة « انا الثورة التي تقيم ما اقعدته الامم . انا العاصفة التي تقتلع الانصاب التي انبتتها الاجيال . انا الذي جاء ليلقي في الارض سيفاً لا سلاماً »

ووقف منتصباً وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر اثر المسامير في كفيه : فارتميت راكعاً امامه وصرخت قائلاً يا يسوع الناصري . . . . . »

وسمعته يقول اذ ذاك « العالم يعيّد لاسمي وللتقاليد التي حاكتها الايام حول اسمي . أما انا فغريبٌ اطوف تائهاً في مغارب الارض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي »

للثعالب اوجرة ولطيور السماء اوكار وليس لابن الانسان أن يسند رأسه »

ورفعت رأسي اذ ذاك ونظرت فلم ارَ امامي سوى عمود من البخور ولم اسمع سوى صوت الليل آتياً من اعماق الابدية

الجبابرة

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب

وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الالم

أما انا فقد سكتُّ لان آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وانينهم الى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف عند ما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود — تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنةً ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً

نحن الآن في زمن اصغر صغائره اكبر من كبائر ما تقدمه . فالامور التي كانت تشغل افكارنا واميالنا وعواطفنا قد انزوت في الظل . والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من

الاهمال . أما الاحلام المستحبة والاشباح الجميلة التي كانت تميس متنقلةً على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحلّ محلها جبابرة تسير كالعواصف ، وتتمايل كالبحار ، وتتنفس كالبراكين

وما عسى أن يصير اليه العالم بعد ان تنتهي الجبابرة من صراعها ؟

هل يعود القروي الى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى ؟

هل يقود الراعي مواشيه الى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر قصائده امام كواكب حُجبت بالدخان ، وينغم المنشد اغانيه في ليل عانقت سكينته الاهوال ؟

هل تجلس الام بجانب سرير رضيعها مرتلةً بالهدوء اغاني النوم وهي لا ترتجف وجلاً مما سيجلبه الغد ؟

هل يلتقي الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى

العدو بعدوه وتبادلا القذائف ؟

وهل يعود نيسان الى الارض ويستر بقميصه اعضاءها المكلومة ؟

ليت شعري ! هل يعود نيسان الى الحقول ؟

* * *

وماذا عسى تصير اليه بلادكم وبلادي؟ وأيُّ من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التي انبتتنا وسيرتنا رجالاً ونساءً امام وجه الشمس ؟

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغائر الذئاب وحظائر الخنازير ، أو ياترى ، تنتقل مع العاصفة الى عرين الاسد أو ذروات النسر ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟

كلما خلوتُ بنفسي اطرح عليها هذه السؤالات غير ان النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلم ، وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهي ذات عيون تتجلى واقدام تتسارع ، اما لسانها فثقيل

ومن منكم ايها الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير الارض وسكانها بعد ان تختمر الجبابرة من دموع الارامل والايتام ؟

انا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي أن هذه السنة تتناول بفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالاديان والحكومات من الحسن الى الاحسن انتقالها بالمخلوقات كافةً من المناسب الى الانسب . فلا رجوعٌ الى الوراء الا في الظاهر ولا انحطاط الا في السطحي

ولسنّة الارتقاء سبل متشعبة يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة الاصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الافكار المحدودة وتتمرد عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة ، متمسكة بحق اسمى من حقوق الافراد ، محدقة بغرض اعلى من مرام الجماعة ، مصغية الى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصات المتوجعين حولي بكل مكان اقزام يرون عن بعد أشباح أشباح

الجبابرة متناضلين ويسمعون في المنام صدى صدى تهاليلهم فيضجون كالضفادع قائلين : « لقد رجع العالم الى فطرته الوضعية . فما بنته الاجيال بالعلم والفن قد هدمه الانسان الوحشي بالطمع والانانية . فحالنا اليوم حال سكان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك »

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم ويحللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونها لحفظ وجودهم الفردي . فكأن الشمس لم تكن الا لتدفئتهم ، وكأن البحر لم يوجد الا لغسل أرجلهم

* * *

من احشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من اعماق الكون المدبر حيث تصان اسرار الكون المدبر قد انبثقت الجبابرة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في الارض لا يحلها غير الصراع

أما البشر وكل ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف ،

وما في قلوبهم من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والاوجاع فآلات يتناولها الجبابرة ويديرونها توصلاً الى غاية علوية لا بد من بلوغها

أما الدماء التي اهرقت فسوف تجري انهاراً كوثرية واما الدموع التي نثرت فستنبت ازهاراً زكية ، واما الارواح التي فاضت فسوف تجتمع وتتآلف وتتطلع من وراء الافق الجديد صباحاً جديداً فيعلم الناس بانهم قد ابتاعوا الحق في سوق البؤس وان من ينفق في سبيل الحق لن يخسر

واما نيسان فسيعود — ولكن من يطلب نيسان من غير كف الشتاء فلن يجده

مات اهلي

(كتبت ايام المجاعة)

مات اهلي وانا قيد الحياة اندب اهلي في وحدتي وانفرادي

مات احبائي وقد اصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم

مات اهلي واحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي ، وانا ههنا اعيش مثلما كنت عائشاً عند ما كان اهلي واحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس

مات اهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد السيف ، وانا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الاسرة الناعمة ويضحكون الايام والايام تضحك لهم

مات اهلي اذل ميتة ، وانا ههنا اعيش في رغد وسلام .

وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي

لو كنت جائعاً بين اهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين ، لكانت الايام أخف وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً امام عينيّ . لان من يشارك اهله بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً مع الابرياء

ولكني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل انا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . انا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا استطيع ان افتخر بشيء حتى ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه !

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحباتي يد الموت عن نفسه

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً

لو كنت طائراً في فضاء بلادي ، لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظلّ القبر عن جسده

ولكن ، واحر قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في اودية لبنان . وهذه هي نكبتي . هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً امام نفسي وامام اشباح الليل

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يديّ ثم توقفني بلا عزم ، ولا ارادة ، ولا عمل

* * *

يقولون لي ـ ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي هرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في اودية الارض وسهولها

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء ـ نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الافاعي والثعابين ـ نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية لأشرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الابدية والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق

لو اشتركت امتي بحرب الامم وانقرضت عن بكرة ابيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت اقدام العواصف لأشرف منه بين ذراعيّ الشيخوخة

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب اهلي واحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهالة ان نحاول ادراك اسرارها وخفاياها

ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين

مات اهلي على الصليب

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء

ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد اغلقت دون صراخهم

ماتوا لانهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين

ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين

ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين

ماتوا لانهم كانوا مسالمين

ماتوا جوعاً في الارض التي تدر لبناً وعسلاً

ماتوا لان الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في اهرائهم من الاقوات

ماتوا لان الافاعي أبناء الافاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملوءه انفاس الارز وعطور الورود والياسمين

* * *

مات اهلي واهلكم ، ايها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟

obeikandl.com

ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم

اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟

هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفة التي تجعلك ، يا اخي السوري ، ان تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية

الامم وذواتها

الامة مجموع افراد متباينى الاخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية اقوى من الاخلاق واعمق من المشارب وأعم من الآراء

وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة غير ان الخلاف في العقيدة لا يحل الروابط الامية الا اذا كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقية

وقد تكون وحدة اللغة سبباً اساسياً لايجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع انها في خلاف مستمر من حيث السياسة والادارة والنظريات الاجتماعية

وقد تكون الوحدة الدموية اساساً لهذه الرابطة ، ولكن في التاريخ امثلة عديدة نستدل منها على أن انفاذ

عنصر واحد انشقت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثم الاضمحلال

وقد تكون المصلحة المادية تولاً تحاك عليه تلك الرابطة ولكن هناك شعوب عديدة لم تحاك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة

اذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هي التربة التي تنبت فيها انصاب الامم ؟

لي رأي في الرابطة الامية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً لان اصوله ونتائجه ليست من الامور المحسوسة

اما رأيي فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة . تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد . ومع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من افراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وارادة منفردة . وكما يصعب عليّ تحديد وتعيين الزمن الذي تتولد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب عليّ تعيين وتحديد

الزمن الذي تتولد فيه الذات العامة . غير انني اشعر ان الذات المصرية ـ مثلاً ـ قد تبلورت قبل ظهور الدولة الاولى على ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسمئة سنة . ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية وما أقوله عن مصر يصح في اشور وفارس واليونان وروما والعرب وغيرها من الامم الحديثة اعني تلك التي ظهرت بعد انقضاء الاجيال المتوسطة

قلت ان للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل حي عمر محدود كان لتلك الذات العامة اجل محدود لا تتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردي من الطفولة ، الى الشبيبة ، الى الكهولة ، الى الشيخوخة ، هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة بنقاب النوم ، الى يقظة الظهر المتجلببة بنور الشمس ، الى يقظة المساء المتسربلة بلباس التضجر ، الى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، الى سبات عميق

ان الذات اليونانية قد استيقظت في القرن العاشر قبل

المسيح . ومشت بعزم وجلال في القرن الخامس ق. م . ولما بلغت عهد الناصري كانت قد ملت احلام اليقظة فنامت على مضجع الابدية لتعانق احلام الابدية

اما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الاسلام ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها اولها في الهند وآخرها في الاندلس ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق الى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقي خفياً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الايطالية المعروفة بالرنسانس واكملت في البندقية وفلورنسا وميلان ما ابتدأت به قبل ان تباغتها الشعوب التوتونية في بدء الاجيال المظلمة

واغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنساوية

فها قد عاشت الفي سنة امام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة . وهي اليوم ادق فكراً وأحد نظراً واوسع فناً وعلماً مما كانت في أي زمن من تاريخها المجيد

فرودان وكارير وشيتان وهوغو وريتان وساسه وسيموني ، وجميعهم من ابناء القرن التاسع عشر كانوا اعظم رجال العالم فناً ، واكثرهم علماً ، وابعدهم خيالاً ـ الامر الذي يدلنا على أن لبعض الذوات العامة اعماراً اطول من الاخرى فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . اما الذات اليونانية فلم تعش اكثر من الف سنة . وقد تكون الاسباب في طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة باسباب قصر أعمار الافراد او طولها

وماذا يا ترى يحل بالذات العامة بعد ان تلعب دورها على مسرح الوجود ؟

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها ؟ هل تضمحل امام الايام والليالي كأنها لم تكن مظهراً لليالي والايام ؟

في عقيدتي ان الكيان المعنوي يتغير، ولكنه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادي يتحول من شكل الى شكل ومن صورة الى صورة . اما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن . فذات الامة العامة تنام ولكن نوم الازاهر بعد أن تلقي بذورها في تربة الارض . اما عطرها فيتصاعد الى عالم الخلود . وعندي ان العطر في الامة او في الزهرة هو الحقيقة المجردة ـ هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل ونينوى واثينا وبغداد موجود الان في الغلاف الاثيري المحيط بالارض ، بل هو موجود في اعماق ارواحنا . ونحن ـ افراداً وجماعات ـ ورثة كل الذوات العامة التي وجدت على سطح الارض . غير أن ذلك الارث العلوي لا يتخذ له صوراً محسوسة في الفرد او الجماعات حتى تتبلور الامة التي ينتسب الافراد والجماعات اليها وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وارادة منفردة

فلفسة المنطق

او

معرفة الذات

في ليلة من ليالي بيروت الممطرة جلس سليم افندي دعيبس امام منضدة فوقها اكداس من الكتب العتيقة والاوراق المنثورة يقلب الاسفار ويرفع رأسه بين الآونة والاخرى مخرجاً من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه اذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سقراط لتلميذه افلاطون في « معرفة الذات »

كان سليم افندي يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضراً الى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم يبق شاردة لمفكر غربي الا ولازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي الا ولاحمت ذاكرته حتى اذا

ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض جأة ومد ذراعيه وصرخ باعلى صوته قائلا « نعم . نعم ان معرفة الذات هي ام كل معرفة . أما انا فعليّ ان أعرف ذاتي . واعرفها تماماً . واعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . عليّ أن ازيل النقاب عن اسرار نفسي وامحو الالتباس عن مكامن قلبي . بل عليّ أن ابين معاني كياني المعنوي لكياني الهيولي وخفايا وجودي الهيولي لوجودي المعنوي »

قال هذا بحماسة غريبة وفي عينيه تتقد شعلة « محبة المعرفة » معرفة الذات ـ ثم دخل الى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل أرض الغرفة بسقفها ونظر محدقاً بشبحه متفرساً وجهه متأملاً بشكل رأسه وخطوط قامته واجمال هيأته

ظل واقفاً جامداً على هذه الحالة نصف ساعة كأن الفكرة الازلية قد انزلت عليه افكاراً هائلة بسموها تجعله بواسطتها ان يكتشف بواطن روحه ويملأ بالنور خلايا ذاته . ثم فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطباً نفسه :

« انا قصير القامة وهكذا كان نابوليون وفكتور هوغو

انا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسبينوزا

انا اصلع وهكذا كان شكسبير

انفي كبير ومنحن الى جهة واحدة وهكذا كان سفنر ولا وفولتير وجورج واشنطون

في عيني سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه

فمي غليظ وشفتي السفلى ناتئة وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر

عنق غليظة وهكذا كان هنيبال ومرقس انطونيوس

اذناي مستطيلتان بارزتان الى الجهة الوحشية وهكذا كان برونو وسرفانتي

وجنتاي بارزتان وخداي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكلن

ذقني متقاهرة الى الوراء وهكذا كان غولد سمث ووليم بت

كتفاي متباينان فالواحد يعلو على الآخر وهكذا كان غمبتا واديب اسحق

يداي ثخينتا الكفين قصيرتا الاصابع وهكذا كان بليك ودانتون

وبالاجمال جسدي ضعيف نحيل وهذا شأن اكثر المفكرين الذين تتعب اجسادهم في مرامي نفوسهم ومن الغريب اني لا استطيع الجلوس كاتباً او مطالعاً الا وبجانبي ابريق القهوة مثلما كان يفعل بلزاك . وفوق ذلك فلي ميل الى معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوي ومكسيم غوركي . وقد يمر اليوم واليومان بدون ان اغسل وجهي ويدي وهكذا كان يتوڤن وولت وتمن . وللعجب اني استريح لسماع اخبار النساء وما يفعلنه في غياب ازواجهن كبوكاشيو وريبالي . اما عطشي الى الخمرة فيضارع عطش نوح وابي نواس ودي موسه ومارلو . واما مجاعتي للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالالوان المتنوعة فتقارن نهم بطرس الاكبر والامير بشير الشهابي

ووقف سليم افندي دقيقة عن مخاطبة نفسه ثم لمس جبهته باطراف بنانه وزاد قائلا : هذا انا . هذه هي حقيقتي . فانا مجموع صفات كان حائزاً عليها اعاظم الرجال من بدء التاريخ الى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه المزايا لا بد من أن يفعل شيئاً عظيماً في هذا العالم

« رأس الحكمة معرفة الذات . وانا قد عرفت نفسي في هذه الليلة ومنذ الليلة سأبتدىء بالعمل العظيم الذي انتدبتني اليه فكرة هذا العالم بوضعها في اعماق عناصر متعددة متباينة . رافقت عظماء البشر من نوح الى سقراط الى بوكاشيو الى احمد فارس الشدياق . أنا لا ادري ما هو العمل العظيم الذي سأقوم به ولكن رجلاً جمع في شخصه الهيولي وذاته المعنوية ما انا جامع لهو من معجزات الايام ومبتكرات الليالي . . لقد عرفت نفسي . نعم والالهة قد عرفتُ نفسي فلتحيَ نفسي ولتعش ذاتي وليبق الكون كوناً حتى تتم اعمالي »

ومشى سليم افندي في تلك الغرفة ذهاباً وايباباً وسيماء البشر على سحنته القبيحة وهو يردد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة العظام بيت أبي العلاء القائل :

اني وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائلُ

وبعد ساعة كان صاحبنا مضطجعاً بملابسه المشوشة على سريره المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحي بنغمة ادنى الى جعجعة الطاحون منها الى صوت ابن آدم

العاصفة

١

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عند ما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادي قاديشا في شمال لبنان

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في امره فمنهم من قال — « هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلاً الى السلوان » . ومنهم من قال — « هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدون افكاره وينظم عواطفه » . ومنهم من قال — « هو متصوف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا » . ومنهم من اكتفى بقوله — « هو مجنون »

أما انا فلم اكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي أن في

داخل الارواح اسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين . غير انني كنت اتمنى لقاء هـذا الرجل الغريب واشتهي محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب اليه لأستطلع حقيقته وأستفسر مقاصده وأمانيه ، فلم اظفر منه بسوى نظرات حادة وبعض الفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع . ففي المرة الاولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الارز ، حييته باحسن ما حضرني من الكلام فلم يرد التحية الا بهز رأسه ثم تحول عني مسرعاً . وفي المرة الثانية وجدته واقفاً في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلاً « قد سمعت بالامس ان هذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر فهل لك علم بذلك يا سيدي ؟ »

فاجاب بلهجة خشنة « لا اعلم من بنى هـذه الصومعة ولا اريد أن اعلم » ثم ادار لي ظهره وزاد ساخراً « لماذا لا تسأل جدتك فهي اقدم عهداً واكثر علماً بتاريخ هـذه الاودية » فتركته مكسوفاً نادماً على تطفلي

وهكذا مرّ عامان وحياة هـذا الرجل المكتنفة

بالاسرار تراود خيالي وتتمايل مع افكاري واحلامي

٢

ففي يوم من ايام الخريف وقد كنت متجولاً بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري ، فاجأتني العاصفة باهوائها وامطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسرت الامواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلاً في نفسي — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاصفة عذري وأثواب المبللة شفيعي

بلغت الصومعة وانا في حالة يرثى لها ولم اطرق الباب حتى ظهر امامي الرجل الذي طالما تشوقت الى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد ان حييته « اعذرني يا سيدي على مجيئي اليك في هذه الحالة ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنازل »

فتفرّس فيّ عابساً واجاب بصوت يساوره الاستنكاف

— « الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بامكانك الالتجاء اليها »

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم ارَ مثله في حياتي فعجبت لمرأى الضدين — الرأفة والخشونة — في وقت واحد وتحيرت في امري . وكأنه قد علم بما يخالج ضميري فنظر اليّ نظرة استيضاح واستعلام ثم قال — « ان العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلم تخافها وتهرب منها ؟ »

فاجبته — « العاصفة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل الى الرطب البارد ولا اشك بانها ستجدني لقمة لذيذة اذا قبضت عليّ ثانية »

فقال وقد انفجرت ملامحه قليلاً — « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف رفيع لا تستحقه »

فاجبته — « نعم يا سيدي ، ولقد جئت اليك هارباً من العاصفة لكي لا انال ذلك الشرف الذي لا استحقه ! »

فحوّل وجهه محاولاً اخفاء ابتسامة ضئيلة ، ثم اشار

نحو مقعد خشبي بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال — « اجلس وجفف اثوابك »

فجلست بقرب النار شاكراً وجلس هو قبالتي على مقعد محفور في الصخر وأخذ يغمس اطراف اصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه المجروح، ثم التفت نحوي قائلاً — « قد دفعت الريح هذا الشحرور فهبط على الصخور بين حي وميت »

فقلت « والريح قد حملتني ايضاً الى بابك يا سيدي وأنا للآن لا ادري ما اذا كانت قد كسرت جانحي أو هشمت رأسي »

فنظر الى وجهي بشيء من الاهتمام وقال — « حبذا لو كان للانسان بعض اطباع الطيور. حبذا لو كسرت العواصف اجنحة البشر وهشمت رؤوسهم. ولكن الانسان مطبوع على الخوف والجبانة فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبيء في شقوق الارض ومغاورها »

فقلت وقصدي متابعة الحديث — « نعم ان للطير شرفاً

ليس للانسان ، فالانسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه . أما الطيور فتحيي بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالارض حول الشمس »

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنه وجد بي تلميذاً سريع الفهم ثم قال ـ « احسنت ، احسنت ، فاذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خالٍ الا من ناموس الارض والسماء »

فقلت ـ « اني اعتقد بما اقول يا سيدي »

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب ـ « الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال اما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف »

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدّد الشحرور على جبة قديمة بقرب النافذة ثم تناول رزمة

من القضبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلاً — «اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة اضر بالانسان من كل شيء آخر. جفف اثوابك جيداً ولا تكن خجولاً »

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من اثوابي الرطبة. اما هو فوقف في باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب

وبعد هنية سألته قائلاً ـ « هل جئت الى هذه الصومعة منذ زمن بعيد ؟ »

فاجاب بدون ان يلتفت نحوي ـ « جئت الى هذه الصومعة عند ما كانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه »

فسكتُّ قائلاً في سري ـ « ما اغرب هذا الرجل وما اصعب السبيل الى حقيقته ، ولكن لا بدّ من محادثته ومعرفة خفايا روحه، وسوف اصبر حتى يتحول شموخه الى اللين والدعة

٣

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الاسود ونمت العاصفة وغزرت الامطار حتى خيل لي ان الطوفان قد جاء ثانية

ليبيد الحياة ويطهر الارض من ادرانها وكان ثورة العناصر قد ولّدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الاحايين مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره مني الى الاستئناس بي ، فقام واشعل شمعتين ثم وضع امامي جرّة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الاثمار المجففة ، ثم جلس قبالتي وقال بلطف ـ « هـذا كل ما عندي من الزاد فتفضل يا أخي وشاركني به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين الى ولولة الريح وبكاء الامطار ، غير انني كنت اتبصر وجهه بين اللقمة والاخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه

وبعـد ان رفع المائدة تناول من جانب الموقد ابريقاً نحاسياً وصبّ منـه قهوة صافية زكية الرائحة في فنجانين ثم فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ وقال بهدوء ـ « تفضل يا اخي »

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وانا لا اصدق ما تراه عينيّ فنظر اليّ وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازّاً

رأسه ثم قال بعد ان اشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة ـ « انت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة . وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وانا لا الومك فانت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون ان البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة »

فاجبته ـ « نعم ياسيدي فقد تعودنا الاعتقاد بان من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما في العالم من الملذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والاعشاب »

فقال ـ « لقد كان بامكاني عبادة الله وانا بين خلقه لان العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد وانا لم اترك العالم لاجد الله لانني كنت اجده في بيت ابي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لان اخلاقي لا تنطبق على اخلاقهم واحلامي لا تتفق مع احلامهم ، تركت البشر لانني وجدت نفسي دولاباً يدور عمية بين دواليب تدور يساراً ، تركت

المدنية لاني وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقها في ظلمة الارض واغصانها تتعالى الى ما وراء الغيوم، اما ازاهرها فمطامع وشرور وجرائم، واما اثمارها فويل وشقاء وهموم. ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على امرهم»

واتكأ اذ ذاك الى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذةً في تأثير كلامه عليّ فرفع صوته اكثر من ذي قبل وزاد قائلاً — «لا، لم اطلب الوحدة للصلاة والتنسك، لان الصلاة، وهي اغنية القلب، تبلغ آذان الله وان تصاعدت ممزوجة بصياح الوف الالوف، واما التنسك، وهو قهر الجسد واماتة رغائبه، فمسألة لا مكان لها في ديني لان الله قد بنى الاجسام هياكل للارواح وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالالوهية التي تحل فيها. لا يا اخي لم اطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وافكارهم وضجتهم وعويلهم. طلبت الوحدة لكي لا ارى اوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم

ليشتروا باثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً . طلبت الانفراد لكي لا التقي بالنساء اللواتي يسرن ممدودات الاعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن الف ابتسامة وفي اعماق قلوبهن غرض واحد . طلبت الانفراد لكي لا اجالس ذوي « النصف معرفة » الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيلون انهم اصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة، ويرون في اليقظة احد اشباح الحقيقة فيتوهمون انهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لاني ملات مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضرباً من الضعف، والتساهل نوعاً من الجبانة، والترفع شكلاً من الكبرياء . طلبت الخلوة لان نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون ان الشموس والاقمار والكواكب لا تطلع الا من خزائنهم ولا تغيب الا في جيوبهم، ومن الساسة الذين يتلاعبون باماني الامم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الالفاظ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم . .

طلبت الوحدة والانفراد لانني لم احصل على شيء من يد بشري الا بعد ان دفعت ثمنه من قلبي . طلبت الوحدة والانفراد لانني سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية . طلبت الوحدة لان في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لان فيها نور الشمس ورائحة الازهار وانغام السواقي . طلبت الجبال لان فيها يقظة الربيع واشواق الصيف واغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت الى هذه الصومعة المنفردة لانني اريد معرفة اسرار الارض والدنو من عرش الله »

وسكت متنفساً الصعداء كأنه القى حملاً ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت عيناه باشعة غريبة سحرية وظهرت على وجهه امارات الانفة والارادة والقوة

ومرت بضع دقائق وانا انظر اليه مسرورًا بظهور ما كان محجوباً عني ثم خاطبته قائلاً ـ « انت مصيب في كل ما قلته ، ولكن ألا ترى يا سيدي ان بتشخيصك امراض

الاجتماع واوصابه قد ابنت لي انك احد الاطباء الماهرين وانه لا يجدر بالطبيب الاعراض عن العليل قبل ان يشفى او يموت ؟ ان العالم بحاجة ماسة الى امثالك وليس من العدل ان تعتزل عن الناس وانت قادر على نفعهم »

فحدق بي هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة « منذ البدء والاطباء يحاولون انقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالادوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا أمل ويا ليت عليل الدهور يكتفي بملازمة مضجعه القذر ومؤانسة قروحه المزمنة ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره ممرضاً ويخنقه والامر الذي يغيظني ويحول الدم في عروقي الى نار محرقة هو ان ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلاً لنفسه « لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيما » . . لا يا اخي . ليس بين الناس من يستطيع ان ينفع الناس فالحارث وان كان حكيما ماهراً لا يقدر على استنبات حقله في ايام الشتاء »

فاجبته قائلاً ـ « قد يمر شتاء العالم يا سيدي ويجيء

بعده ربيع بهي جميل فتظهر الازهار في الحقول وتترنم الجداول في الاودية »

فتقطب ما بين عينيه متنهداً وبصوت تمانقه الكآبة قال « ليت شعري هل قسم الله حياة الانسان ـ وهي الدهر بكامله ـ الى فصول تشابه فصول السنة بمسيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الارض بعد الف الف عام طائفة من البشر تحيى بالروح والحق ؟ هل يأتي زمن يتمجد فيه الانسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك يا ترى ـ هل يتم ذلك بعد أن تشبع الارض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم ؟ »

وانتصب اذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير الى عالم غير هذا العالم ـ « تلك احلام بعيدة ، وليست هذه الصومعة منزلاً للاحلام ، لان ما اعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الاودية وهذه الجبال . أما ما اعلمه يقيناً فهو هذا ـ انا كائن موجود ، وفي اعماق وجودي جوع وعطش ، ولي الحق أن اتناول

خبز الحياة وخمرها من الآنية التي أصنعها بيدي ، من اجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية »

وأخذ يمشي ذهاباً وإياباً في وسط تلك الغرفة وانا اتأمله وافكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامعة البشرية بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً — « اني احترم افكارك ومقاصدك يا سيدي ، واحترم وحدتك وانفرادك غير انني اعلم — والعلم مجلبة الاسف — ان هذه الامة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وايقاظها »

فاجاب — هازاً رأسه — « ليست هذه الامة الا كالامم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض الا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتد بها ، فتعاسة الامم الشرقية هي تعاسة الارض بكاملها . وليس ما تحسبه رقياً في الغرب سوى شبح آخر من اشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وان قلم اظافره ، والغش يبقى غشاً

وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقاً اذا لبس الحرير وسكن القصور . والخداع لا يتحول الى أمانة اذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعةً اذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وان سارت بين المعامل والمعاهد . . . أما العبودية ـ العبودية للحياة ، العبودية للماضي ، العبودية للتعاليم والعوائد والازياء ، العبودية للاموات فستبقى عبودية وان طلت وجهها وغيرت ملابسها . العبودية تظل عبودية حتى وان دعت نفسها حرية . لا يا أخي ليس الغربي ارقى من الشرقي ولا الشرقي أحط من الغربي وما الفرق بينهما الا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً اولياً عادلاً يفرق التعاسة والعماوة والجهالة على السواء فلا يميز شعباً على شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة »

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حد الالتباس ـ « اذاً فالمدنية باطلة وكل ما فيها باطل ؟ »

فاجاب متهيجاً ـ « نعم باطلة هي المدنية وباطل كل

شيء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والاودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثمار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس . أما تلك الالغاز والاحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبية يجرها الانسان مبتهجاً بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هي اقفاص ابتدأ الانسان بتطريق اعمدتها واسلاكها منذ القدم غير عالم بانه لا ينتهي من صنعها الا ويجد نفسه اسيراً مسجوناً في داخلها . . . نعم باطلة هي اعمال الانسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء على الارض ، وليس بين اباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها ـ ليس هناك غير شيء واحد »

فقلت « وما ذلك يا سيدي ؟ »

فوقف دقيقة ساكتاً ثم اغمض اجفانه واضعاً يديه على صدره ، وقد اشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت

عذب مرتعش قال ـ « هي يقظة في النفس . هي يقظة في عمق اعماق النفس . هي فكرة تفاجىء وجدان الانسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحيـاة مكتنفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الارض واللانهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الوسيع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغربا مستهجناً كل ما يخالفها . كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون اسرارها . هي يد خفيـة قد ازالت الغشاء عن عيني وانا في وسط الاجتماع بين اهلي واصحابي ومواطني فوقفت منذهلاً مدهوشاً قائلاً في نفسي ـ ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين اليّ وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم بل لمـاذا أجالسهم وأحادثهم ؟ هل انا غريب بينهم أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي واسلمتني مفاتيحها . . . »

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته

صوراً واشباحاً لا يريد اظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً ـ « هذا ما حلّ بي منذ اربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لأعيش في اليقظة متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة »

ومشى اذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً الى اعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة ـ « هي يقظة في اعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع اظهارها بالكلام ومن لم يعرفها لا ولن يدرك اسرارها »

٤

ومرّت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارةً في وسط تلك الحجرة ويقف طوراً في بابها محدقاً بالفضاء العابس ، أما انا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهراً اقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلاً الى وجهي كأنه يريد أن يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له

بسر وحدته وانفراده . ثم قال ببطء ـ « أنا ذاهب الآن للتجول في العاصفة ، هي عادة أتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء . . . هاك ابريق القهوة واللفائف ، وان طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرة . واذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة »

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسماً ـ « ارجوك أن توصد باب الصومعة عند ما تذهب في الصباح لانني سأصرف الغد في غابة الارز »

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال ـ « اذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء الى هذه الصومعة . ولكنني ارجو أن تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها . . . . مساء الخير يا اخي »

وخرج الى الليل مسرعاً

ولما وقفت في باب الصومعة لارى وجهته كان الظلام

قد اختفاه ولكنني بقيت بضع دقائق اسمع وقع قدميه على حصباء الوادي

٥

جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس فتركت الصومعة بعد ان قفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنوية التي تكلم عنها يوسف الفخري

ولكنني لم ابلغ منازل الناس وأرى حركاتهم واسمع اصواتهم حتى وقفت قائلاً في سري ـ « نعم ، ان اليقظة الروحية هي اخلق شيء بالانسان بل هي الغرض من الوجود ، ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع انكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته . قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الابدي قد جعل الاعراض سلماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق »

ولم اجتمع ثانية بيوسف النخري لان الحياة ابعدتني عن شمال لبنان في اواخر ذلك الخريف جئت منفياً الى بلاد قصية عواصفها داجنة . أما التنسك فيها فضرب من الجنون

الشيطان

كان الخوري سمعان عالماً بدقائق الامور الروحية، متبسطاً بالمسائل اللاهوتية، متعمقاً باسرار الخطايا العرضية والمميتة، متضلعاً بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفي ارواحهم من امراض الاثم وينقذهم من حبائل الشيطان. فالشيطان كان عدو الخوري سمعان يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب

وكان سكان القرى يكرمون الخوري سمعان ويرتاحون الى ابتياع عظاته وصلواته بالفضة والذهب ويتسابقون الى اهدائه أطيب ما تثمره اشجارهم وافضل ما تنبته حقولهم

ففي عشية يوم من ايام الخريف، وقد كان الخوري سمعان سائراً في مكان خال نحو قرية منفردة بين تلك الجبال

والاودية سمع أنيناً موجعاً آتياً من جانب الطريق فالتفت فاذا برجل عاري الجسم منطرح على الحصباء ونجيع الدم يتدفق من جراح بليغة في رأسه وصدره ، وهو يقول مستنجداً : « انقذني . أغني . اشفق عليّ فانا مائت ! »

فوقف الخوري سمعان محتاراً ونظر الى الرجل المتوجع ثم قال في ذاته : « هذا أحد اللصوص الاشقياء ، وأظن انه قد حاول سلب عابري الطريق فغُلب على أمره . . . . هو منازع فاذا مات وانا بقربه أُتهمت بما انا براء منه ! »

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : « لا تتركني : لاتتركني : أنت تعرفني وانا أعرفك : انا مائت لا محالة ! »

فقال الخوري في ذاته وقد اصفر وجهه ، وارتعشت شفتاه : « أظنه احد المجانين الذين يتوهون في البرية » ثم عاد وقال لنفسه : « ان منظر جراحه يخيفني فماذا عسى أفعل له ؟ . . . ان طبيب النفوس لا يستطيع ان يداوي الاجساد »

ومشى الخوري بضع خطوات ؛ فصاح الجريح بصوت يذيب الجماد قائلاً : « اقترب مني . اقترب فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخوري سمعان الراعي الصالح وأنا — انا — لست بلص ولا بمجنون . اقترب ولا تدعني أموت وحيداً في هذه البرية الخالية . اقترب فأقول لك من أنا »

فاقترب الخوري سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً فرأى وجهاً غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء والقباحة بالجمال ، والخباثة بالدماثة . فتراجع الى الوراء وصرخ قائلاً « من أنت ؟ »

فقال المنازع بصوت خافت : « لا تخف يا أبتِ فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد . أعني على النهوض وسر بي الى الساقية القريبة واغسل جراحي بمنديلك »

فصرخ الخوري : « قل لي من أنت ، فأنا لا أعرفك ولا أذكر بأنني رأيتك في حياتي »

فأجاب الجريح وحشرجة الموت تعانق صوته : « أنت

تعلم من أنا ، فقد لقيتني ألف مرة وشاهدت وجهي في كل مكان . انا اقرب المخلوقات اليك ، بل انا أعز عليك من حياتك »

فصاح الخوري قائلاً « أنت كاذب محتال : وخليق بالمنازعين الصدق ، فأنا لم أرَ وجهك في حياتي — قل من أنت والا تركتك تموت مضرجاً بدمائك ! »

فتحرك الجريح قليلاً وشخص بعيني الخوري وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة معنوية وبصوت هادىء ناعم عميق قال : « انا الشيطان »

فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ارتعشت له زوايا ذلك الوادي ، ثم نظر اليه محدقاً فرأى ان جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيأة الابالسة في صورة الدينونة المعلقة على جدار كنيسة القرية . ثم صرخ مرتجفاً : « لقد أراني الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهي ، فلتكن ملعوناً الى أبد الابدين ! »

قال الشيطان : « لا تكن متسرعاً يا أبتاه ، ولا تضيع

الوقت بالكلام الفارغ ، بل اقترب واضمد جراحي قبل ان يسيل ما في جسدي من الحياة »

فقال الخوري : « ان اصابعي التي ترفع الذبيحة الربانية في كل يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعوناً من ألسنة الدهور وشفاه الانسانية لانك عدو الدهور والعامل على ابادة الانسانية »

فقال الشيطان متململاً : « أنت لا تدري ما تقول ولا تعلم أي ذنب تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتي. كنت اليوم سائراً وحدي في هذه الاودية المنفردة ولما بلغت هذا المكان التقيت بجماعة من اجلاف الملائكة فهجموا عليّ وضربوني ضرباً مبرحاً ولو لم يكن مع احدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً ، ولكن ماذا يفعل الاعزل مع المسلح ؟ »

وقف الشيطان عن الكلام هنيهةً واضعاً يده على جرح بليغ في جانبه ، ثم زاد قائلاً : « اما الملاك المسلح ، واظنه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف ولو لم انطرح على

الارض وامثل دور النزع والموت لما ابقى مني عضواً بجوار عضو آخر »

فقال الخوري بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : « ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الانسانية من عدوها الخبيث ! »

فقال الشيطان : « ليست عداوتي للانسانية أشد سواداً من عداوتك لنفسك ، فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء ، وتجدف على اسمي في ساعة انكساري مع أنني كنت ولم أزل سبباً لراحتك وسعادتك . أتجحد نعمتي وتنكر معروفي وأنت عائش في ظلال كياني ؟ أو لم تتخذ وجودي صناعة لك واسمي دستوراً لاعمالك . هل أغناك ماضيّ عن حاضري ومستقبلي ؟ هل تمت ثروتك الى حد لا تحتمل معه الزيادة ؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدي بل ويموتون جوعاً بموتي ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالي وأية صناعة تحسنها اذا أبادت الارياح اسمي ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا

الجبل لتحذر الناس من حبائلي وتبعدهم عن مصائبي ، وهم يتباعون مواعظك بأموالهم وغلة حقولهم ، فأي شيء يتباعون منك غداً اذا علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وانهم أصبحوا في مأمن من حبائله ومعاقله ؟ وأية وظيفة يسندها القوم اذا الغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتي المدقق ان وجود الشيطان قد أوجد أعداءه الكهان ، وان تلك العداوة القديمة هي اليد الخفية التي تنقل الفضة والذهب من جيوب المؤمنين الى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ ألا تعلم وانت العالم الخبير انه بزوال السبب يزول المسبب ؟ اذاً كيف ترضى بموتي ، وبموتي تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن افواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت في وجهه دلائل الاستعطاف بامارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : « ألا فاسمع ايها الغبي المكابر فأريك الحقيقة التي تضم كياني بكيانك ، وتربط وجودي بوجدانك . في اول ساعة من الزمن وقف الانسان امام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ للمرة الاولى

قائلاً : « ما وراء الافلاك اله عظيم يحب الخير ! » ثم ادار ظهره للنور فرأى ظله منبسطاً على اديم التراب فهتف قائلاً : « وفي اعماق الارض شيطان رجيم يحب الشر ! » ثم سار نحو كهفه هامساً في نفسه : « انا بين الهين هائلين ، اله أنتمي اليه ، واله احاربه » . ومرت العصور اثر العصور والانسان بين قوتين مطلقتين ، قوة تصعد بروحه الى العلاء فيباركها ، وقوة تهبط بجسده الى الظلمة فيلعنها . غير انه لم يكن يدري معاني البركة ولا مباني اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها . ولما بلغ الانسان فجر المدنية وهي الالفة البشرية ظهرت العائلة ثم القبيلة ففرقت الاعمال بتفرق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الارض ، وآخرون ببناء المآوي ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بهصر المعادن . في ذلك العهد البعيد ظهرت الكهانة في الارض ، وهي الحرفة الاولى التي ابتدعها الانسان بدون حاجة حيوية أو داعٍ طبيعي اليها »

وقف الشيطان دقيقةً عن الكلام ثم قهقه ضاحكاً بصوت ارتعشت له تلك الاودية الخالية . وكأن الضحك قد اوسع فوهات كلومه فأسند خاصرته بيده متوجعاً ، ثم شخص بالخوري سمعان وزاد قائلاً : « في ذلك العهد ظهرت الكهانة في الارض . واليك يا أخي كيفية ظهورها : كان في القبيلة الاولى رجل يدعى « لاويص » ولا ادري لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب ـ وكان لاويص هذا رجلاً ذكياً ، ولكنه كان بطّالاً متوانياً ، يكره حراثة الارض وبناء المآوي يكرهه رعاية المواشي وصيد الوحوش . بل كان يكره كل عمل يستلزم عزم السواعد والحركة الجسدية . ولما كان الرزق في ذلك العهد لا يأتي الا بالعمل كان لاويص يبيت اكثر لياليه خاوي الجوف فارغه . ففي ليلة من ليالي الصيف وافراد تلك القبيلة ملتئمون حول كوخ زعيمهم يتحدثون بما آتي يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب احدهم فجأةً واشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلاً : « انظروا نحو

اله الليل فقد شحب وجهه واضمحل بهاؤه وتحول الى حجر اسود معلقاً بقبة السماء . فشخص القوم بالقمر ثم ضجوا صارخين ، متهيبين ، مرتعشين ، خائفين ، كأن ايدي الظلام قد قبضت على قلوبهم لانهم رأوا اله لياليهم يتحول ببطء الى كرةٍ قاتمة وقد تغير لذلك وجه الارض وانحجبت البطاح والاودية وراء نقاب أسود . فتقدم اذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرّات عديدة في سابق حياته فوقف في وسط الجماعة رافعا ذراعيه الى العلاء وبصوت اودعه كل ما في ذكائه من التصنع والاحتيال صاح قائلاً : « اسجدوا . اسجدوا وصلوا مبتهلين وعفروا وجوهكم بالتراب ، فاله الشر المظلم يصارع اله الليل المنير ، فاذا غلبه متنا واذا غُلب بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وعفروا وجوهكم بالتراب ، بل اغمضوا اجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء . لان من يشاهد صراع اله النور واله الشر يفقد بصره ورشده ويظل مجنوناً وأعمى الى نهاية ايامه . خروا راكعين وساعدوا بقلوبكم اله النور على عدوه »

وظلّ لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله الفاظاً جديدة غريبة ، مردداً كلمات ما سمعوها قبل تلك الليلة ، حتى اذا ما مرّ نصف ساعة وقد عاد القمر الى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذي قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : « قفوا الآن وانظروا ، فقد تغلب اله الليل على عدوه الشرير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا انكم بركوعكم وابتهالكم قد نصرتموه وسررتموه ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً »

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فاذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم الى طمأنينة واضطرابهم الى مسرة واخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهللين ويضربون بنبابيتهم صفائح الحديد والنحاس مفعمين خلايا ذلك الوادي بعويلهم وضجيج لهجتهم ....

في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : « لقد اتيت في هذه الليلة بما لم يأته بشري قبلك ، وعلمت من اسرار الحياة ما لا يعلمه بيننا سواك . فافرح وابتهج

لانك ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الاول من بعدي في هذه القبيلة . فانا أشد الرجال بطشاً واقواهم ساعداً وأنت اكثر الرجال معرفة واكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط بيني وبين الالهة تبلغني مشيئتهم وتبين لي اعمالهم واسرارهم وتعلمني ما يجب أن افعله لاكون حاصلاً على رضائهم ومحبتهم »

فاجاب لاويص : « كل ما يقوله لي الالهة في الحلم اقوله لك في اليقظة ، وما اراه من مآتيهم اظهره لك . فانا الوسيط بينك وبين الالهة »

فسر الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشاً وسبعين شاة وقال له : « سوف يبني لك رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتي ، وسيهدونك في نهاية كل موسم قسما من غلة الارض واثمارها فتعيش سيداً مطاعاً مكرماً »

وانتصب اذذاك لاويص للانصراف فاوقفه الزعيم وسأله قائلاً : « ولكن من هو هذا الاله الذي تدعوه باله الشر ؟ من هو هذا الاله الذي يجسر ان يصارع اله الليل

البهي . اننا لم نسمع به قط ولا علمنا بوجوده ؟ »

ففرك لاويص جبهته واجاب قائلاً : « اعلم يا سيدي انه في قديم الزمان ، وذلك قبل ظهور الانسان ، كان جميع الالهة يعيشون بسلام ومودة في مكان قصي وراء المجرّة . وكان اله الالهة ، وهو والدهم يعلم ما لا يعلمونه ويفعل ما لا يستطيع احدهم ان يفعله . ويحفظ لنفسه بعض الاسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الازلية . ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمردت روح « بعطار » وهو يكره الاله الاعظم فوقف امام ابيه وقال : « لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا اسرار الاكوان والنواميس والدهور . أو لسنا ابناءك وبناتك ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟ » فغضب اله الالهة واجاب : « سوف احفظ لنفسي القوة الاولية والسلطة المطلقة والاسرار الاساسية الى ابد الدهر ، فانا البدء وانا النهاية » فقال بعطار : « ان لم تقاسمني قوتك وجبروتك تمردت انا وابنائي واحفادي على قوتك وجبروتك » فانتصب اذ ذاك اله الالهة فوق عرشه وقد

امتشق المجرة سيفاً وقبض على الشمس ترساً وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً « ألا فاهبط ايها المتمرد الشرير الى العالم الادنى حيث الظلمة والشقاء وابق هناك منفياً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتتحول الكواكب الى هباء منثور » . في تلك الساعة هبط بعطار من مقر الالهة الى العالم الادنى حيث تقيم الارواح الخبيثة . وقد أقسم بسر خلوده انه سيصرف الدهور محارباً والده واخواته واضعاً الاشراك لكل محب لوالده أو مريد لاخوانه

فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته واصفر وجهه : « اذاً فاسم اله الشر بعطار ؟ »

فاجاب لاويص : « كان اسمه بعطار اذ كان في مقر الالهة ، ولكنه قد اتخذ له بعد هبوطه الى العالم الادنى اسماء اخرى منها بعلزبول وابليس وسطنائيل وبليال وزميال واهريمان وماره وابدون والشيطان — واشهرها ، الشيطان »

فردد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الاغصان اليابسة لمرور الهواء ثم قال « ولماذا يا ترى

يكره الشيطان البشر بكرهه الالهة ؟ »

فاجاب لاويص : « ان الشيطان يكره البشر ويعمل على ابادتهم لانهم من نسل اخوانه واخواته »

فقال الزعيم محتاراً : « اذاً فالشيطان هو عم البشر وخالهم؟ »

فاجاب لاويص وقال بلهجة لا تخلو من التشويش والالتباس : « نعم يا سيدي ، ولكنه عدوهم الاكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ ايامهم بالتعاسة ولياليهم بالاحلام المخيفة . فهو القوة التي تحول العاصفة نحو اكواخهم وتحرق بالقيظ مزارعهم وتقرض بالاوبئة مواشيهم وتلامس بالامراض اجسادهم . هو اله قوي شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتئب لافراحنا ، فعلينا ان نتفحص اطباعه لنتقي شره وندرس اخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله »

فاسند الزعيم رأسه على نبوته وهمس قائلاً : « قد عرفت الان ما كان خافياً عني من اسرار تلك القوة الغريبة التي تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالاوبئة مواشينا وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الان فيطوبونك يا لاويص لانك ابنت

لهم خفايا عدوهم القوي وعلمتهم كيف يتقون حبائله »

وانصرف لاويص من امام زعيم القبيلة وذهب الى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشوانا بخمرة خياله . اما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقلبون على مراقد محاطة بالاشباح المخيفة والاحلام المزعجة

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخوري سمعان يحدق فيه وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب وعلى شفتيه ابتسامة الموت

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلاً : « كذا ظهرت الكهانة في الارض وهكذا كان وجودي سبباً لظهورها ، وقد كان لاويص اول من اتخذ عداوتي صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة ابنائه واحفاده فنمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففي بابل كان الناس يسجدون سبع مرات امام الكاهن الذي يحاربني بتعازيمه وفي نينوي كانوا ينظرون الى

الرجل الذي يدعي معرفة أسراري وخفاياي كحلقة ذهبية بين الالهة والبشر ، وفي ثيب كانوا يلقبون من يصارعني بابن الشمس والقمر ، وفي بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضحون ابناءهم وبناتهم ارضاء لخصمي ، وفي اورشليم وروما كانوا يضعون ارواحهم في قبضة من يتفنن في كرهي وابعادي . في كل مدينة ظهرت امام وجه الشمس كان اسمي محوراً لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة . فالهيا كل لم تقم الا في ظلالي والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهري والقصور والبروج لم ترتفع الا برفعة منزلتي . فانا العزم الذي يولد العزم في البشر ، وانا الفكرة التي تستنبت الحيلة في الافكار ، وانا اليد التي حركت ايادي الناس . انا الشيطان الازلي الابدي : انا الشيطان الذي يحاربه الناس ليظلوا عائشين . فاذا كفوا عن منازلتي يوقف الخمول افكارهم ويميت الكسل ارواحهم وتفني الراحة اجسادهم . انا الشيطان الازلي الابدي . انا عاصفة هوجاء خرساء أهب في أدمغة الرجال وصدور النساء واجرف أميالهم الى الاديرة والصوامع ليمجدوني بخوفهم مني أو الى

منازل البغي والخلاعة ليفرحوني باستسلامهم الى مشيئتي .
فالراهب الذي يصلي في سكينة الليل لكي ابتعد عن مضجعه
هو كالمومسة التي تناديني لكي اقترب من مضجعها. انا الشيطان
الازلي الابدي. انا باني الاديرة والصوامع على اسس الخوف،
وانا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على اسس الشهوة واللذة.
فان زال كياني زال الخوف واللذة من العالم ، وبزوالهما تضمحل
الميول والاماني في القلب البشري فتصبح الحياة خالية مقفرة
باردة كقيثارة مقطعة الاوتار مكسرة الجوانب . انا الشيطان
الازلي الابدي. انا موحي الكذب والنميمة والاغتياب والغش
والسخرية ، فاذا انقرضت هذه العناصر في العالم اصبحت
الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى اشواك
الفضيلة . انا الشيطان الازلي الابدي . انا ابو الخطيئة وامها
فاذا ما زالت الخطيئة زال محاربوها وزلت انت ايضاً وزال
ابناؤك واحفادك وزملاؤك ورصفاؤك . انا ابو الخطيئة وامها
فهل تريد ان تموت الخطيئة بموتي ؟ هل تريد ان تقف الحركة
البشرية بوقوف نبضات قلبي ؟ هل تريد ان تمحو السبب

لتمحى المسببات ؟ انا هو السبب الوضعي فهل تريد ان اموت في هـذه البرية الخالية . اجبني ايها اللاهوتي ، هل تريد أن تنتهي العلاقة الاولية الكائنة بينك وبيني ؟ »

وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه الى الامام وتنهد طويلاً فظهر بلونه الرمادي المائل الى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التي ابقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثم حدق بوجه الخوري سمعان بعينين مشعشعتين كالمسارج وقال : « لقـد انهكني الكلام وكان الاحرى بي وانا جريح منازع ان لا اطيل معـك الحديث ، ومن العجيب اني قد استرسلت باظهار حقيقة انت ادرى بها مني ، وبيان امور هي ادنى الى صالحك منها الى صالحي . اما الان فلك ان تفعل ما تشاء . لك ان تحملني على ظهرك وتذهب بي الى منزلك لتداوي جراحي ، او ان تتركني في هـذا المكان لانازع واموت

وكان الشيطان يتكلم والخوري سمعان يرتعش ويفرك يداً بيد ، وبصوت تعانقه الحيرة والارتبـاك قال : « أنا

أعرف الآن ما لم اكن أعرفه منذ ساعة ، فسامح غباوتي .
أنا اعلم بانك موجود في العالم لكي تجرب والتجربة هي مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هي ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الارواح أو خفتها .
أنا اعلم الآن بأنك اذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التي تجعل الانسان أن يكون متحذراً ، بل يزول السبب الذي يقود الناس الى الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لانك ان قضيت وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالاثم .
من اجل ذلك يجب أن تحيا ، لان بحياتك خلاص الجنس البشري من الرذيلة . أما انا فسوف اضحي كرهي لك على مذبح محبتي للجنس البشري »

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال :
« ما اذكاك وما ابرعك يا حضرة الاب ، بل وما اعمق معارفك بالامور اللاهوتية . فها قد اوجدت بقوة ادراكك سبباً لوجودي لم اكن اعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل

منا الاسباب الوضعية واللاهوتية التي اوجدتنا في البدء وتوجدنا الآن يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخي. تعالَ واحملني الى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد ان اهرقتُ نصف دمي على حصباء هذا الوادي »

فاقترب الخوري سمعان من الشيطان وقد شمر عن ساعديه وشكل اطراف عباءته بحزامه ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق

بين تلك الاودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخوري سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عارٍ وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه

الصلبان

المكان — منزل يوسف مسرة في بيروت
الزمان — ليلة من ليالي الخريف سنة ١٩٠١
الاشخاص :
بولس الصلبان — موسيقي واديب
يوسف مسرة — كاتب واديب
الآنسة هيلانة مسرة — شقيقة يوسف
سليم معوض — شاعر وعواد
خليل بك تامر — موظف في الحكومة

يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والاوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة

خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) ـ قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها على الاخلاق وقد اعجبتني كثيراً ، ولولا صبغتها الافرنجية لكانت خير ما كُتب في

الموضوع . انا يا مسرة افندي من الذين يرون أن تأثير الآداب الغربية على لغتنا من الامور المضرة

يوسف مسرة (مبتسماً) ـ قد يكون الحق معك يا صديقي ولكن بارتدائك الملابس الافرنجية وبتناولك الطعام بآنية افرنجية وبجلوسك على مقاعد افرنجية قد عارضت ذاتك بذاتك ، وفوق كل ذلك انت اكثر ميلاً الى مطالعة الكتب الافرنجية منك الى مطالعة الكتب العربية

خليل بك ـ ليس لهذه الامور السطحية من علاقة بالآداب والفنون

يوسف مسرة ـ نعم هناك علاقة حيوية وضعية . واذا تعمقت قليلاً في الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والازياء والتقاليد الدينية والاجتماعية بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية

خليل بك ـ انا شرقي وسابق شرقياً الى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الاوربية ، فانا ارجو ان تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الاجنبية

يوسف مسرة ـ اذاً انت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك ـ وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة ـ ان الامم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الامم الحديثة تموت ادبياً وتنقرض معنوياً

خليل بك ـ ان كلامك هذا يحتاج الى برهان

يوسف مسرة ـ لديَّ الف برهان وبرهان

(في هذه الدقيقة يدخل بولس الصلبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً)

يوسف مسرة ـ اهلاً وسهلاً بالاخوان (مخاطباً الصلبان) اهلاً وسهلاً ببلبل سوريا

(الآنسة هيلانة تنظر الى الصلبان وقد توردت وجنتاها قليلاً وظهرت على محياها أمارات السرور)

سليم معوض ـ بالله عليك يا يوسف ان لا تقول كلمة حسنة لبولس

يوسف مسرة ـ ولماذا ؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) — لانه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الاطراء . لانه ذو اطوار واخلاق غريبة . لانه مجنون

بولس الصلبان (مخاطباً معوض) ـ هل احضرتك برفقتي الى هذا المنزل لتبين عيوبي وتشرح اخلاقي ؟

الآنسة هيلانه ـ ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم افندي عيوباً جديدة في اخلاق بولس ؟

سليم معوض ـ ان عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن وتتحول عظامه الى تراب

يوسف مسرة ـ اخبرنا . ماذا جرى ؟ اخبرونا بالحكاية من اولها الى آخرها

سليم معوض (مخاطباً الصلبان) هل تسمح لي ان اتكلم عن جرائمك يا بولس ام تريد ان تعترف انت بها ؟

بولس الصلبان ـ اريد ان تبقى صامتاً كالمقبرة هاجعاً كقلب العجوز

سليم معوض ـ اذاً فسوف اتكلم

الصلبان ـ يظهر لي انك تريد ان تنغص عيشي في هذه السهرة

سليم معوض ـ لا بل اريد ان اعرض قصتك امام هؤلاء الاصحاب لينظروا في امرك

الآنسة هيلانه (مخاطبة معوض) ـ تكلم واسمعنا ما جرى ! (للصلبان) قد تكون الجريمة التي يريد سليم ان يظهرها احدى فضائلك

الصلبان ـ لم اقترف جريمة كما انني لم افعل فضيلة . اما المسألة التي يشوق صاحبنا الى اظهارها فهي لا تستحق الذكر وفوق كل ذلك فانا لا اريدكم ان تصرفوا السهرة بحديثي

الآنسة هيلانه ـ حسن اذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) ـ قد سمعتم طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا وقد عرفتم ان والد العريس قد اقام ليلة أمس حفلة طرب دعا اليها وجهاء المدينة وكبارها (مشيراً الى بولس) وقد دعا هذا الشرير ودعيت انا ايضاً والسبب في ذلك ان الناس يحسبونني

ظلاً لبولس اسير حيث يسير واقوم حيث يقوم ، ولانه ادامه الله وابقاه ، لا يحب الانشاد الا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا متأخرين وبولسنا كالملوك لا يجيء الا متأخراً فوجدنا هناك الوالي والمطران بل وجدنا هناك الحسناء الفاضلة والاديب والشاعر والمثري والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون الى بولس كأنه ملاك هبط من السماء . اما السيدات فاخذن يقدمن اليه كؤوس الخمر وصحف النقل وطاقات الازهار مثلما كانت تفعل نساء اثينا عند رجوع احد الابطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام ان بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء . . اخذت عودي وضربت اولاً وثانياً وثالثاً فتح بولس شفتيه المقدستين وأنشد بيتاً . . بيتاً واحداً من قصيدة الفارض

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر

فاصغى القوم وتطاولت اعناقهم كأن الموصلي قد جاء من وراء حجب الابدية ليهمس في آذانهم انغاماً سحرية

علوية . وبعد ذلك سكت بولس فظن الحاضرون انه سيعود الى الانشاد بعد ان يشرب كأساً اخرى من العرق ولكن بولس ظل ساكتاً

بولس الصلبان (بلهجة جدّية) — ارجوك ان تقف عند هذا الحد فانا لا اقدر ان اسمع هذا الحديث البليد وانا لا اشك بان اصحابنا لا يجدون لذة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى

يوسف مسرة ـ بحقك دعنا ان نسمع البقية

بولس الصلبان (ينهض من مكانه قائماً) ـ الظاهر انكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم ـ اودعكم !

الآنسة هيلانة (تنظر الى بولس نظرة معنوية) ـ أجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد)

سليم معوض (متابعاً حديثه) ـ قلت ان بولس المعظم قد انشد بيتاً ـ بيتاً واحداً من قصيدة الفارض وسكت . اعني بذلك انه اذاق اولئك الجياع المساكين

لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر آنيتها وكؤوسها ثم جلس ساكتاً جلوس ابي الهول على رمال النيل. وقامت السيدات الواحدة بعد الاخرى يستعطفنه بارق الكلام لينشد اغنية اخرى فكان يعتذر لهن بقوله « انا مرشح . اشعر بالم في حنجرتي » — ثم قام الوجهاء والاغنياء يرجونه ويتذللون امامه فلم يحن ولم يلن بل بقي جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد ابدل قلبه بحجر من الصوان وحوّل الانغام في نفسه الى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حده الأقصى ناداه جلال باشا الى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً « انت تستطيع يا بولس افندي ان تختم حفلتنا بالسرور او بالاكدار لذلك ارجوك ان تقبل مني هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك فلا تخيب آمالي وآمال الحاضرين بك » . عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير الى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين « انت تهينني يا جلال باشا بل انت تحتقرني فانا لم

اجيء الى منزلك لكي انشد واغني وابيع انفاسي للمال بل جئت كاحد المهنئين » بعد هذا فقد جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحسّاس ان يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . أما انا ـ انا المسكين فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركاً ورائي الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحّيت كل ذلك لكي لا افقد صداقة هذا المتصلب المتعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البغيم وهو للآن لم يشكرني ولم يمدح بسالتي ولم يعترف بجودتي وولائي

يوسف مسرة (ضاحكاً) — هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حرية أن تكتب بالابر على آماق البصر !

سليم معوض ـ لم اصل للآن الى نهاية الحكاية . أما اللذة ففي النهاية تلك النهاية الشيطانية التي لم يحلم بمثلها اهريمان الفرس ولا سيفا الهنود

بولس الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) — بقيت

هنا اكراماً لكِ والآن ارجوكِ أن تطلبي من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد

هيلانة — دعه يتكلم يا بولس ! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) — قلت اننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدّف على اسم الاغنياء والوجهاء وانا اجدف على اسمه في سرّي وبعد ذلك — وبعد ذلك هل تظنون انه ذهب كلٌّ منا الى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا ! ! تعلمون أن بيت حبيب سعاده محاذٍ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وانتم تعلمون أن حبيب سعاده من عشاق المدام والانغام والاحلام وممن يعبدون هذا البعليم (مشيراً الى بولس) فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقةً في منتصف الشارع فاركاً جبهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ثم مشى فجأةً نحو منزل حبيب سعاده وقرع الجرس بشدة

فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتثاءب ولكنه عند ما رأى وجه بولس ورآني حاملاً العود تحت ابطي تغيرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت امامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً ـ « ما اتى بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ » فاجاب بولس ـ « قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك » فقال حبيب « هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم الى هذا المنزل الحقير ؟ » فاجاب بولس « ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والاناشيد ، من اجل ذلك جئنا اليك فهات قنينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام » الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً او كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ثم ناولني العود وقال آمراً « هذي عصاك يا موسى فحولها الى أفعى ومرها أن تبتلع جميع افاعي مصر . اضرب النهوند واضرب طويلاً واضرب جميلاً » فتناولت العود وليس على العبد الا الطاعة وضربت

النهوند فحوّل بولس وجهه نحو منزل جلال باشا واخذ ينشد بصوت عالٍ

(هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيماء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية)

انا اعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . اعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة ولقد سمعته منشداً في حالتي الفرح والشقاء سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر. سمعته يهمس في سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها وسمعته بين اودية لبنان واجراس الكنائس البعيدة تملأ الفضاء سحراً وهيبةً . نعم لقد سمعته منشداً الف مرة ومرة وكنت اتوهم انني اعرف حركات روحه وسكناتها ولكنني في ليلة امس لما حوّل وجهه نحو منزل جلال باشا واغمض عينيه وانشد

« كل يوم اشكو من غرام قلبي
وكلما اشكو يزيد الغرام »

عند ما انشد هذا الدور متلاعباً بمقاطيعه مثلما يتلاعب

الهواء باوراق الخريف قلت في نفسي لا ـ ما عرفت في الماضي من روح بولس الا القشور اما الآن فقد بلغت اللباب . لم اسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً اما الآن فاني اسمع قلبه وروحه ... وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد الى نشيد حتى خيل لي أن في الفضاء طغمة من ارواح العشاق تحوم مرفرفةً هامسةً مناديةً مرددة تذكارات الماضي البعيد ناشرةً ما طوته الليالي من اماني البشر واحلامهم . نعم يا سادتي « مشيراً الى بولس » ان هذا الرجل قد صعد ليلة امس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ومن العجائب انه لم يهبط على الارض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع اعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء في المزامير ؟ أما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعاده حتى تزاحموا في النوافذ وجلسوا نساءً ورجالاً يتأوهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم الى الحديقة ووقفوا تحت الاشجار مغبوطين متعذبين مصغين محتارين في امر هذا البعليم الذي ينكيهم ويهينهم وفي

الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية وقد كان يناديه البعض مستعطفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً وقد علمت من احد المدعوين ان جلال باشا كان يزأر كالاسد منتقلاً من غرفة الى غرفة لاعناً الصلبان غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا الى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بايديهم . هذا ما جرى ليلة امس فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ ما رأيكم باطوار هذا الرجل واخلاقه الغريبة ؟

خليل بك ـ هذه حادثة عجيبة . أما رأيي فيها فهو هذا ـ انا من المعجبين بمواهب بولس افندي ومع كل احترامي له اقول انه قد اخطأ ليلة أمس فقد كان بامكانه ان ينشد في بيت جلال باشا كما انشد في بيت حبيب سعاده ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف افندي ؟

يوسف مسرة ـ انا لا ألوم الصلبان كما انني لا احاول فهم اسراره وخفاياه لعلمي ان المسألة شخصية تتعلق به دون

سواه ولعلمي ان اخلاق الفنيين خصوصا الموسيقيين منهم تختلف عن اخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة ان نقيس اعمالهم ومآتيهم على المقاييس التي نستخدمها لادراك اعمال غيرهم . ان الفني ـ واعني بالفني ذلك المبدع الذي يخلق لافكاره وعواطفه صوراً جديدة ـ هو رجل غريب بين اهله وخلاّنه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفني يميل شرقاً عند ما يميل الناس غرباً ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه ان يبسطها فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعساء ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفني فوق الشريعة رضي الناس ام غضبوا

خليل بك ـ ان كلامك هذا يا يوسف افندي لايختلف بمعانيه ومفاده عما جاء في مقالتك عن الفنون الجميلة واسمح لي أن اقول ثانيةً ان الروح الغربية ، الروح الافرنجية التي تكرز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة

يوسف مسرة ـ هل تحسب ما فعله بولس افندي ليلة أمس مظهراً للروح الافرنجية التي تنكرها وتكرهها ؟

خليل بك ـ اني استغرب ما فعله بولس افندي ، أقول ذلك مع الاحترام لشخصه

يوسف مسرة ـ أو ليس للصليبان تمام الحرية أن يفعل بصوته وفنّه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك ـ نعم له تمام الحرّية أن يفعل ما يشاء ولكنني ارى ان حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . ان ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس افندي ليلة امس بدون ان يضع نفسه في موقف حرج

الآنسة هيلانه ـ هذه مناظرة لذيذة ومفيدة . ولكن بما ان السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع ان يدافع عن نفسه بنفسه

بولس الصليبان (بعد سكوت طويل) ـ كنت اتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت اود ان يزول ما جرى ليلة امس مع ليلة امس . ولكن بما انني في مركز حرج كما يقول حضرة البك فأنا لا أرى بداً من اظهار افكاري في

هذا الموضوع . انتم تعلمون وانا اعلم ايضاً ان اكثر من يعرفني ينتقدني . هذا يقول انني مغنج وذلك انني اعوج . وهناك فئة تقول انني لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب يا ترى في هذه الانتقادات الجارحة ؟ ان السبب في اخلاقي. نعم في اخلاقي التي لا اقدر ان اغيرها ولو قدرت لما اردت. ولماذا يا ترى يهتم الناس بي وباخلاقي ؟ أليس بامكانهم ان يتناسوا كياني ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين والموسيقيين وكثير من الشعراء والمقرظين وكثير من المبخرين والشحاذين الذين يبيعون اصواتهم وافكارهم وعواطفهم بل ويبيعون نفوسهم بدينار او بعلفة او بقنينة من الخمر . وقد عرف اغنياؤنا ووجهاؤنا هذا السر لذلك تراهم يتناعون ابناء الفن والادب بابخس الاثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم في الساحات والطرق . نعم أيها السادة ان المغنين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الاعراس ويترنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم

ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي تدار في ايام الحزن وليالي الافراح ، فاذا لم يكن من داعٍ للحزن أو الفرح طرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وانا لا ألوم الوجهاء والاغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والادباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يصونون بماء وجوههم . ألومهم لانهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لانهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل

خليل بك (متهيجاً) ـ ان القوم كانوا يستعطفونك ليلة امس ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتتكرم عليهم باغنيـة أو نشيد . فهل تحسب انشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟

بولس الصلبان ـ لو استطعت الانشاد في منزل جلال باشا لفعلت . ولـكنني نظرت حوليَّ فلم أجـد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الاصوات الا رنّـات الدنانير والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة الا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حوليَّ فلم أجد مَن يميز

النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الاصفهان لذلك لم استطع ان افتح صدري امام العميان أو اعرض اسرار قلبي امام الطرشان . انما الموسيقى لغة الارواح . هي سيّال خفي يتموج بين روح المنشد وارواح السامعين ، فاذا لم يكن هناك من ارواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل الى البيان ويفقد ذلك الشوق الى اظهار ما في اعماقه من الحركات والسكنات . والموسيقي مثل قيثارة ذات اوتار مشدودة حساسة فاذا تراخت تلك الاوتار فقدت خاصتها واصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) ـ لقد تراخت اوتار روحي في منزل جلال باشا عندما تفرست في الحاضرين نساء ورجالاً ولم ارَ بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . أما استعطافهم اياي فلم يكن ناتجاً الا عن تمني وسكوتي . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتم احد بي

خليل بك (يقاطعه مداعباً) ـ وبعد ذلك ذهبت الى

منزل حبيب سعاده . وللنكاية — وللنكاية فقط — جلست منشداً حتى الصباح !

بولس الصلبان — جلستُ منشداً حتى الصباح لاني اردت ان افرغ مكنونات قلبي . لانني اردت ان القي حملاً ثقيلاً عن عاتقي . لانني اردت ان اعاتب الليل والحياة والدهر . لانني شعرت بحاجة ماسة الى شد تلك الاوتار التي تراخت في منزل الباشا . اما اذا كنت تظن يا خليل بك انني اردت النكاية فلك الحق بان تفتكر بما تريد . ان الفن طائر حر يسبح محلقاً عند ما يشاء ويهبط الى الارض عند ما يشاء وليس من قوة في هذا العالم تستطيع تقييده او تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشرى ، وعلى الشرقيين ان يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . اما الفنيون بيننا — وهم اندر من الكبريت الاحمر — فعليهم ان يكرموا نفوسهم لانها الاناء الذي يملأه الله خمرة علوية

يوسف مسرة — اني متفق معك يا بولس . ولقد ابنت افكاري في هذا الموضوع بصورة لا استطيع انا اظهارها .

انت ابن الفن اما انا فباحث بالفنون، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة

سليم معوض ـ الصلبان يتكلم مثلما ينشد وليس على سامعه الا الاقتناع والاذعان

خليل بك ـ لم اقتنع بعد ولن اقتنع . وما فلسفتكم هذه الا احدى تلك العلل المتسربة الينا من بلاد الافرنج

يوسف مسرة ـ لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة

(في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخاطب الآنسة هيلانة قائلة : — يا معلمتي قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة)

يوسف مسرة (ينتصب مخاطباً الجميع) تفضلوا ايها الاخوان فقد هيأنا لكم اكلة لذيذة ـ لذيذة جداً ـ وتكاد ان تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة وخليل بك وسليم معوض . اما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكلٌ يحدق بوجه الاخر وفي عينيهما أشعة لا توصف)

هيلانه (هامسة) ـ هل علمت انني كنتُ مصغيةً اليك ليلة أمس ؟

الصلبان (مستغرباً) ماذا تعنين يا هيلانة قلبي ؟

هيلانة (بخجل ووجل) ـ كنتُ امس في بيت شقيقتي مريم . ذهبت لانام عندها لان زوجها متغيب وهي تخاف لوحدها

الصلبان ـ أو بيت صهرك على طريق الحرج ؟

هيلانه ـ ولا يفصله عن بيت حبيب سعاده غير زقاق ضيق

الصلبان ـ وهل سمعتني منشداً ؟

هيلانه ـ سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك حتى سمعت الله متكلماً

(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلا :)

« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة »

(يخرج بولس وهيلانه . الستار !)

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد

جلس الامير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد امامهُ ، وقوف الانصاب امام وجه الشمس

بعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من انشادهم ، وتوارت انفاسهم بين طيات اثواب الليل ، وقف كبير الوزراء امام الامير وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

« ايها الامير العظيم ، قد جاء المدينة بالامس حكيم من حكماء الهند ذو اطوار غريبة ومذاهب جديدة لم نسمع قط بمثلها فهو يدعو الناس الى الاعتقاد بتقمص الارواح

من جسد الى جسد ، وانتقال النفوس من جيل الى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير الى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه امامك »

فهزّ الامير رأسه وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فادخلوه لنسمع حجته »

ولم تمر دقيقة حتى دخل كهل اسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين ، وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن اسرار عميقة واميال غريبة ، وبعد ان انحنى مستأذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه وطفق يتكلم عن بدعته مظهراً كيف تنتقل الارواح من هيكل الى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرجة بتأثيرات الامور التي تختبرها متمايلة مع الامجاد التي ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها . . . ثم تطرق الى كيفية انتقال النفوس من مكان الى مكان باحثة عما تحتاج اليه من الكماليات

مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها مستغلة في بلد ما زرعته في بلد آخر

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الامير سيماء الملل والضجر اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس في اذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث الى فرصة ثانية »

فتراجع الحكيم الى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً اجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود واسراره

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الانبياء تلفت الامير الى اليمين والى اليسار ثم سأل قائلاً « اين شاعرنا فقد مرّ زمن ولم نره . . ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ »

فقال احد الكهان « قد رأيته منذ اسبوع جالساً في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه اضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده »

وقال احد القواد « قد رأيته بالامس واقفاً بين اشجار

السرو والصفصاف فحيته ولم يرد التحية بل ظل غارقاً في بحر افكاره واحلامه

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته اصفر اللون . شاحب الوجه . تراود الدموع اجفانه وتتلاعب الغصات بانفاسه »

فقال الامير بصوت تلاحقه اللهفة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد شغل بالنا امره »

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظل الامير واعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الامير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الامير قائلاً « ما الخبر . . . ماذا جرى ؟ »

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » فانتصب الامير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج الى الحديقة يتقدمه حاملو

المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا اطراف الحديقة حيث اشجار اللوز والرمان جلت لهم اشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الاعشاب كغصن ورد ذابل

فقال احد الاعوان « انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء احبها واحبته فتعاهدا على ان يموتا معاً »

وقال احد القواد « لم نزل نحدق في اعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال اله غير معروف »

وقال رئيس الكهان مخاطباً الامير « غداً نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان قصائده وتنثر العذارى الازهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً »

فهزّ الامير رأسه دون ان يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد اهملناه اذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من اشباح نفسه ويعطر الفضاء بانفاسه فاذا ما اكرمناه ميتاً تسخر بنا الالهة وتضحك منا عرائس الروح والاودية . ادفنوه ههنا حيث فاضت

روحه وابقوا قيثارته بين ذراعيه . وان كان بينكم من يريد ان يكرمه فليذهب الى بيته ويخبر ابناءه بان الامير قد اهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً »

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « اين الفيلسوف الهندي؟»

فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا ايها الامير العظيم »

فقال الامير « قل ـ قل ايها الحكيم ـ هل ترجعني الآلهة اميراً الى هذا العالم وتعيده شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير . هل توقفه النواميس ثانية امام وجه الابدية لينظم الحياة شعراً ، تعيدني لانعم عليه وافرح قلبه بالهبات والعطايا »

فاجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح ، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك اميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً »

فانفرجت ملامح الامير وانتعشت نفسه ثم مشى نحو قصره مفكراً في اقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح »

٣

« في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر والقى وشاحه الفضي على المدينة ، واميرالبلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر الى الفضاء الصافي . مفكراً بما آتي الاجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً اعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا امام هيبة ابي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والامم التي سيرها الدهر من جوانب الاهرام الى قصر عابدين

ولما اتسعت دائرة افكاره . وانبسطت مسارح احلامه. التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة ميل الى الشعر فانشدنا شيئاً منه »

فحنى النديم رأسه واخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه الامير قائلاً « انشدنا شعراً احدث عهداً »

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد ابياتاً لاحد الشعراء المخضرمين

فقاطعه الامير ايضاً وقال « احدث عهداً ـ احدث عهداً »

فانحنى النديم للمرة الثالثة واخذ يترنم بمقاطيع موشح اندلسي

فقال الامير « انشدنا قصيدة لشاعر معاصر »

فرفع النديم يده الى جبهته كأنه يريد ان يستحضر الى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر . ثم برقت عيناه وتهلل وجهه . وطفق يرتل ابياتاً خيالية ذات رنة سحرية . ومعان رقيقة مبتكرة . وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً

فحدق الامير بنديمه . وقد استهوته نغمة الابيات ومعانيها . وشعر بوجود ايدٍ خفية تجتذبه من ذلك المكان الى مكان قصي . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الابيات ؟ »

فاجاب النديم « للشاعر البعلبكي »

الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي . . كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع

الامير وولدتا في داخل روحه النبيلة اشباح اميال متلبسة بوضوحها قوية بدقتها

الشاعر البعلبكي . . اسم قديم جديد . أعاد الى نفس الامير رسوم أيام منسية وأيقظ في اعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة . ورسم امام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء

واحت هذه الرؤيا أمام عيني الامير مثلما تتوارى الاحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردداً آية النبي العربي « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »

ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض « انما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية بمجيء هذا العالم مغرداً فان لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائراً الى مواطنه »

وانقضى الليل . خلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم . ولبس قميصه المنسوجة من أشعة الصباح . ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه وخفايا الحياة وأسرارها

obeikandl.com

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية « تولا » حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي الى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركاً عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هـذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع انه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس — ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم ان الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقا تعاظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفية التي جعلته أن يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه

ان الحياة في شمالي لبنان اقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون افراح الوجود وشدائده مدفوعين باميال فطرية وضعية . فاذا ما جاءت الايام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الايام اليهم بامر آخر

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن اعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مار تولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال

وبينما هم على هذه الحالة واذا بالخوري اسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيدٍ وبعد هنيهة قال :

ـ لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما اعرفه يا ابنائي هو هذا . قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر ولما فتحت له وجدته متمسكاً بمقود فرسه وعلى وجهه امارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال « جئت لاودعك يا ابتي ، فانا مسافر الى ما وراء البحار ولن اعود الى هذه البلاد وانا حي » ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب اليّ أن اسلمها اليه يداً بيد . ففعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل ان استوضح أمره . هذا كل ما اعرفه . فلا تسألوني الزيادة »

فقال احد الواقفين :

ـ لا شك ان في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لان نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية

وقال آخر

ـ وهل رأيت عروسته يا ابتاه ؟

فاجاب الكاهن

ـ قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب

النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت ادراكها ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لا ادري . لا ادري . » ثم طفقت تبكي وتنتحب كالاطفال

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً اجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم ـ رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من امعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق ثوابها وتصرخ متوجعة ـ « قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية في صدره »

فبهت القوم كأن اكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على ارواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في

بعينه الرسالة التي كان قد سلمه اياها في ذلك الصباح . وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد ان يجعلها جزءاً من اصابعه . فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون ان يراه احد ثم تراجع الى الوراء لاطماً وجهه

وحمل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التي لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها الى منزلها بين حية وميتة

* * *

ولما بلغ الخوري اسطفان منزله اوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلاً الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :

« أخي نجيب

انا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي ايضاً . انا اعلم بانك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك ، واعلم ان زوجتي سوسان طاهرة

الذيل ، ولكنني اعلم في الوقت نفسه ان الحب الذي يضم قلبك وقلبها هو امر فوق ارادتكما . فانت لا تستطيع ازالته كما انك لا تقدر ان توقف مجاري نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة . وانت لم تزل صديقي امام الله . وارجوك أن تفتكر بي في المستقبل مثلما كنت تفتكر بي في الماضي . واذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها اني احبها وأرحمها . وقل لها ايضاً اني كنت اذوب شفقة عندما كنت استيقظ في سكينة الليل واراها راكعة امام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها . ليس اصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائم . كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما أنا فمسافر الى مكان بعيد ولن أعود الى هذه الديار لاني لا اريد ان اكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام ارجوك يا اخي أن تبقى مخلصاً لسوسان وأن تحافظ عليها حتى النهاية لانها

قد ضحت كل شيء من اجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل ان يقدم للمرأة . ابق يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لاخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري اسطفان من قراءة الرسالة طواها واعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادي البعيد وعلى وجهه المتجعد امارات التفكر العميق

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سراً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتفاً بالصطحيات . فهتف صارخاً — ما اكثر دهائك يا فارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت اليه بالسم ممزوجاً بالعسل . قد بعثت اليه بالسيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت اليه الموت طي الرسالة . فعندما صوب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة على يده وارادتك محيطة بارادته ... أواه ما اكثر دهائك يا فارس الرحال ...

وعاد الخوري بولس فجلس على المقعد هازاً رأسه ممشطاً لحيته باصابعه مبتسماً ابتسامات ذات معان أشد هولاً من المأساة . وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتياً من قلب القرية

obeikandl.com

ما وراء الرداء

عند ما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدّقت هنيهة بسقف الغرفة ثم اغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت :

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي ، فلنذهب الى لقائه »

فاقترب اذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدها باردة كالثلج ثم وضع اصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فاحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد ان يلفظ كلمة علوية تردها اشباح الليل في تلك الاودية القاصية الخالية . ثم صلّب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملوءه الشفقة والانعطاف :

« قد ذهبت زوجتك الى لقاء ربها . فقم ، يا اخي ، واركع بجانبي لنصلي »

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى في فضاء الغرفة ظل اله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً ، منتحباً ، راسماً بين الآونة والاخرى شارة الصليب على وجهه وصدره

وانتصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلا :

« قم ، يا اخي ! تعال الى الغرفة الثانية . فانت بحاجة الى النوم والراحة »

فلم يبد الرجل معارضة ، بل وقف وسار الى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار

ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم اجفانه فرقد كطفل بين ذراعي امه

* * *

اما الكاهن فظل منتصباً كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ويلتفت

كل دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية

ومرّت ساعة اطول من الدهر وأشد هولاً من الموت والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين ـ رجل راقد رقود حقل يحلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الازمنة الغابرة تحلم احلام الابدية

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا امامها كما يجثو امام المذبح ، ثم اخذ يدها الباردة ووضعها على شفتيه المرتجفتين ونظر الى وجهها المتشح بنقاب الموت وبصوت هادىء كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

« يا راحيل ، ياراحيل ، يا اخت روحي ، اسمعيني يا راحيل فانا استطيع الان الكلام . قد فتح الموت شفتيّ لابوح لكِ بسر أعمق من الموت ، واطلق الالم لساني لاكشف لكِ امراً اشد من الالم . اسمعي صراخ روحي ايتها الروح المرفرفة بين الارض واللانهاية . اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعةً من الحقل فيتنحى محتجباً بين الاشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو

يناديك الآن بلا وجل لانك بلغت مدينة الله »

همس هذه الالفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبّل عنقها ـ قبلات طويلة حارّة ، خرساء ، علوية تبين ما في نفسه من اسرار الحب والالم

ثم تراجع فجأة الى الوراء وارتمى على الارض مرتعشاً كاوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد ايقظت في داخله عاطفه الندم ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً في سره :

« اغفر ذنبي ، يارب ! سامح ضعفي ، يا الهي ! فأنا لم اتجلد حتى النهاية فالسر الذي اخفته الحياة في قلبي سبعة اعوام قد اباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لي يارب سامح ضعفي يا الهي . . . . »

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر الى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح والقى وشاحه الوردي على تلك الرسوم الهيولية التي تمثل الحب والدين والحياة والموت

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين اترابها وتتمايل فرحة بين قامات الاعشاب

ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت متنهدة —

« ما اقل حظي بين الرياحين ، وما اوضع مقامي بين الازهار فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، اعيش ملتصقة باديم الارض ولا استطيع أن ارفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو احول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود »

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت

ضاحكة ثم قالت — «ما اغباكِ بين الازهار ، فانتِ في نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتكِ الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخلِّ عنك هذه الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لك واعلمي ان من خفض جناحه يرفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع في النقصان » فاجابت البنفسجة قائلة :

« انتِ تعزيني ايتها الوردة ، لانكِ حاصلة على ما اتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لانكِ عظيمة . وما امر مواعظ السعداء في قلوب التعساء . وما اقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء ! »

* * *

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة :

« ماذا جرى لكِ يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، ام سلبت عقلك العظمة الفارغة؟ »

فاجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف:

« ايتها الام العظيمة بجبروتها ، الحائلة بحنانها ، اضرع اليكِ بكل ما في قلبي من التوسل، وما في روحي من الرجاء أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً »

فقالت الطبيعة ـ « انتِ لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت قامتك وابدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم »

فقالت البنفسجة ـ « حوّلي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة، مرفوعة الرأس . ومهما يحل بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي »

فقالت الطبيعة ـ « لقد اجبت طلبك ايتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك »

ومدت الطبيعة اصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالاعصار ثم هاجت سوا كن الوجود فابرقت وارعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الامطار والاهواء . فكسرت الاغصان ولوت الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبق الا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض أو تختبىء بين الصخور

اما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة اخرى

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى اصبحت ازاهرها هباءً منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة

* * *

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بازهار الحديقة واشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلةً :

« ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً واعجاباً »

وقالت بنفسجة اخرى ـ « نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء

وقالت بنفسجة ثالثة ـ «نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا »

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت اوراقها الارياح وألقتها على الاعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداه العدو بسهم

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت اوراقها ونادت رفيقاتها قائلة ـ «تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد امثولة لكنّ »

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

« ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والاعصار . لقد كنتُ بالامس مثلكنّ

اجلس بين اوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة واهوائها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهياً بما يسوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني أن اعيش نظير كن ملتصقةً بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كمن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل أن اعرف من اسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وُجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامح والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكني اصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول لهذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني . وما زلت اتمرد على ذاتي واشوق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعّالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبتُ الى الطبيعة ـ وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية ـ ان تحولني الى وردة ففعلت ،

وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق »

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة منمنمة بالفخر والتفوق :

« اي لقد عشتُ ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الورود . وسمعت همس الاثير باذان الورود . ولمستُ ثنايا النور باوراق الورود . فهل يمكنُ من تستطيع ان تدعي شرفي ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت :

« انا اموت الآن . اموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه . وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي »

واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية ـ ابتسامة من حققت الحياة امانيه ـ ابتسامة النصر والتغلب ـ ابتسامة الله

الشاعر

انا غريب في هذا العالم

انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة ، غير انها تجعلني ان افكر ابداً بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ احلامي باشباح ارض قصية ما رأتها عيني

انا غريب عن أهلي وخلاني ، فاذا ما لقيت واحداً منهم اقول في ذاتي : « مَن هذا ، وكيف عرفته ، وأي ناموس يجمعني به ، ولماذا اقترب منه واجالسه ؟ »

انا غريب عن نفسي ، فاذا ما سمعت لساني متكلماً تستغرب اذني صوتي ، وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة ، باكية ، مستبسلة ، خائفة ، فيعجب كياني بكياني وتستفسر روحي روحي ، ولكنني ابقى مجهولاً ، مستتراً ، مكتنفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت

انا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي ، وأجد في عينيّ ما لا تكنه اعماقي

اسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين : « هوذا الاعمى فلنعطه عكازاً يتوكأ عليها » فاهرب منهم مسرعاً . ثم التقي بسرب من الصبايا فيتشبثن باذيالي قائلات : « هو اطرش كالصخر فلنملأ اذنيه بانغام الصبابة والغزل » فاتركهن راكضاً . ثم التقي بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين : « هو اخرس كالقبر فتعالوا نقوّم اعوجاج لسانه » فاغادرهم خائفاً . ثم التقي برهط من الشيوخ فيومئون نحوي باصابع مرتعشة قائلين : « هو مجنون اضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان »

* * *

انا غريب في هذا العالم

انا غريب وقد جبتُ مشارق الارض ومغاربها فلم اجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع بي

استيقظ في الصباح فاجدني مسجوناً في كهف مظلم

تتدلى الافاعي من سقفه وتدبُّ الحشرات في جنباته . ثم اخرج الى النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي فتسير امامي الى حيث لا ادري ، باحثة عن امور لا افهمها ، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء اعود واضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القتاد فتراودني افكار غريبة وتتناوبني أميال مزعجة مفرحة موجعة لذيذة ، ولما ينتصف الليل تدخل عليّ من شقوق الكهف أشباح الازمنة الغابرة وارواح الامم المنسية فاحدق بها وتحدق بي ، واخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ثم احاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان

* * *

انا غريب في هذا العالم

انا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي

اسير في البرية الخالية فارى السواقي تتصاعد متراكضة من اعماق الوادي الى قمة الجبل ، وأرى الاشجار العارية

تكتسي وتزهر وتثمر وتنثر اوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط اغصانها الى الحضيض وتتحول الى حيات رقطاء مرتعشة . وارى الاطيار تتنقل متصاعدةً ، هابطةً ، مغرّدةً ، مولولة ، ثم تقف وتفتح اجنحتها وتنقلب نساء عاريات ، محلولات الشعر ، ممدودات الاعناق ينظرن اليّ من وراء أجفان مكحولة بالعشق ويبتسمن لي بشفاه وردية منموسة بالعسل ويمددن نحوي ايادي بيضاء ناعمة معطرة بالمن واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن مني واستهزاءهن بي

انا غريب في هذا العالم

انا شاعر انظم ما تنثره الحياة وانثر ما تنظمه ، ولهذا انا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني الى وطني

الكلام

وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين

لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين

لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين

استيقظ في الصباح فارى الكلام جالساً بجانب مضجعي على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر اليَّ بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء

اغادر فراشي وأجلس الى جانب النافذة لأُزيح نقاب النوم عن بصيرتي بفنجان من القهوة فيتبعني الكلام وينتصب امامي راقصاً صارخاً معربداً ثم يمد يده مع يدي الى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافي . واذا تناولت لفافة يتناولها معي . واذا رميتُ بها رماها معي ايضاً

اقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوساً في اذني ، مهمهماً حول رأسي مقرقعاً في خلايا دماغي . فاحاول طرده فيضحك مقهقهاً ثم يعود الى الوسوسة والهمهمة والقرقعة

اخرج الى الشارع فارى الكلام واقفاً في باب كل حانوت ، منبسطاً على جدران كل منزل . أراه في اوجه الناس وهم صامتون . وفي حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون

ان جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا . وان التقيت بعدوي ينتفخ الكلام اذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولاً الى جيش عرمرم اوله مشارق الارض وآخره مغاربها . فاذا غادرته هارباً ظل صدى كلامه يتمايل مختبطاً في باطني اختباط طعام لا تهضمه المعدة

اذهب الى المحاكم والمعاهد والمدارس فارى الكلام واب الكلام واخاه وهم يلبسون الكذب رداءً والاحتيال عمامة وحذاءً

ثم اسير الى المعمل والى المكتب والى الادارة فاجد الكلام واقفاً بين امه وعمته وجدته وهو يقلّب لسانه بين

شفتيه الغليظتين وهنّ يتسمنَ له ويضحكن مني

واذا بقي لي شيء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهيا كل رأيت هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفي يده صولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمها

وعندما اعود في المساء الى غرفتي اجد الكلام الذي سمعته سحابة نهاري متدلياً كالافاعي من سقفها . منسلاً كالعقارب في قرانيها

الكلام في الفضاء وما وراءه . وعلى الارض وتحتها

الكلام على اجنحة الاثير . وفي امواج البحر . وفي الغابات والكهوف . وفوق قمم الجبال

الكلام في كل مكان . فالى اين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟

أيوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لانتمي اليها ؟

هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش فاحيا سعيداً في جنة السكون الابدي ؟

أليس على وجه البسيطه قرنة خالية من شقشقة اللسان

وبلبلة الالسنة ، حيث الكلام لا يباع ولا يشترى . ولا يعطى ولا يؤخذ

ليت شعري أبين سكان الارض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟ هل يوجد بين طغمات الخلق من لم يكن فيه مغارة للصوص الالفاظ ؟

* * *

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا، ولكنهم انواع واشكال لا عداد لها

فهناك طائفة « المستفضعين » الذين يعيشون في المستنقعات النهار وطوله . وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطىء رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والارواح

وهناك طائفة « المستبعضين » (والبعوض من مولدات المستنقعات ايضاً) وهم الذين يرفرفون حول اذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية سداها النكاية ولحمتها البغضاء

وهناك طائفة « المستطحنين » وهي طائفة غريبة في

داخل كل فرد من افرادها حجر يدار بالكحول فيولد جمجمة جهنمية اخفّها اثقل مما تحدثه حجارة الرحى

وهنالك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون اجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والازقة مبطنين الهواء بخوار ألطفه اغلظ من خوار الجاموس

وهنالك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة واجداثها محولين سكينة الدجى الى عويل أفرحه احزن من نعيب البوم

وهنالك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة الاّ اخشابها فيمرفون الايام بتجزئتها وتفصيلها محدثين بذلك خشخشة اعذبها اضنك مما تحدثها المناشير

وهنالك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بعطارق ضخمة فيخرج من افواههم الفارغة قرقعة ألطفها أغلظ من قرقعة الطبول

وهنالك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم

ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويصغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه

وهناك طائفة « المستهزئين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ولكنهم يدعون الاستنابة باسم المجون والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون

وهناك طائفة « الانوال » التي تحوك الهواء بالهواء ولكنها تظل هي بدون قمصان ولا سراويل

وهناك طائفة « الزرازير » التي قال عنها الشاعر « لما حام حائمها توهمت انها صارت شواهينا »

وهناك طائفة « الاجراس » وهي التي تدعو الناس الى الهياكل ولكنها لا تدخلها

وهناك طوائف وعشائر لا تعدّ ولا تحصى ولا توصف . اغربها في عقيدتي طائفة نائمة ولكنها تملأ الفضاء غطيطاً ولكنها لا تدري

* * *

والآن وقد ابنت بعض أرفي واشمئزازي من الكلام والمتكلمين اراني كالطبيب المعتل او كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبي قبيل ان يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمون

obeikandl.com

فهرست

	صفحة
حفار القبور	١
العبودية	١٠
المليك السجين	١٦
يسوع المصلوب	٢٠
على باب الهيكل	٢٦
ايها الليل	٣٢
الجنية الساحرة	٣٧
قبل الانتحار	٤١
يا بني أمي	٤٥
نحن وانتم	٥٠
أبناء الالهة واحفاد القرود	٥٦
بين ليل وصباح	٦١
المخدرات والمباضع	٧٠
السرخين المفضض	٨١
رؤيا	٨٩
في ظلام الليل	٩٢
الاضراس المسوسة	٩٦
مساء العيد	١٠١
الجبابرة	١٠٧
مات أهلي	١١٣
الامم وذواتها	١١٩
فلسفة المنطق	١٢٥
العاصفة	١٣١
الشيطان	١٥٣
الصلبان	١٧٤
الشاعر البعلبكي	١٩٦
السم في الدسم	٢٠٦
ما وراء الرداء	٢١٤
البنفسجة الطموحة	٢١٨
الشاعر	٢٢٥
الكلام وطوائف المتكلمين	٢٢٦

obeikandl.com